الصُّورَةُالبَيَانِيَّةُ فِي الِحكَمِ العَطَائِيَّةِ

تأليف الدكتور / محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية ـ بجامعة جازان

مـقدمة

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده , وأصلي وأسلم على أفصح خلقه وخليله محمد بن عبد الله النبي الأمي صاحب الكلم الجوامع , والدرر اللوامع , من أوتي أسباب البلاغة , واختصر له الكلام اختصاراً .

وبعد

فإن حكم ابن عطاء الله السكندري إنما هي في حقيقتها وموضوعها قبس من هدي القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، صاغها الشيخ بأعذب لفظ وأوجزه , وعرضها في أرقى صورة ، وأبهى حُلة حتى شُغل بها السالكون والدارسون , واجتهد العلماء قديماً وحديثاً في شرحها وبيان ما تنطوي عليه أصدافها من جواهر وكنوز يحتاج إليها العارفون والسالكون إلى الله على بصيرة .ولقد رزق الشيخ ابن عطاء الله بهذه الحكم شهرة عظيمة في سماء البيان والفصاحة , كما رزق شهرة كبيرة في ميدان الزهد والسلوك إلى الله تعالى ؛ فلقد جمع بين العلم والعمل ، فكان ممن سلك السبيل القويم , والمنهج الرشيد في ميدان الزهد والتصوف , وهو المنهج الذي يتفق مع الكتاب والسنة . وجاءت حكمه الرائعة الموجزة في عبارات دقيقة ورقيقة موجزة تقطر حسناً وبلاغة من مشكاة القرآن والسنة لمن تأملها حق التأمل , وردها إلى نبعها الحقيقي الأصيل الذي صدرت منه . وعلى كثرة شروح الحكم لم تدرس من الناحية التصويرية والبيانية بشكل مستقل , وإنما هي إشارات سريعة في أثناء الشرح عند بعض الشراح كما هو الحال عند ابن عبّاد النفّزي الرندي ت (792) هـ , وابن عجيبة ت (1224) هـ , وغيرهما من الشرّاح ... , أما أن يدرس أحدٌ الصورة البيانية وحدها في حكم ابن عطاء على وجه الخصوص فلم يوجد شرح عُني بهذه الناحية من الحكم فيما وقفت عليه من شروح وتعليقات على الحِكَم قديماً وحديثاً .

فهذا البحث المتواضع هو الأول في هذا الجانب من الحكم بفضل الله تعالى ، أردت من خلاله أن أكشف عن عناية ابن عطاء بالصورة البيانية من تشبيه واستعارة وكناية في حكمه نظراً لما للتصوير البياني من أثر في توضيح المعنى ,وبيان المقصود , وإبراز للمعنوي في ثوب حسي , والغيبي في صورة مشاهدة ؛ ولأن الشيخ قد عُني بهذه الناحية التصويرية في حكمه , وحرص على انتقاء الألفاظ المناسبة للصورة المعروضة فأتت حكمه في أبهى حلة , وأحسن معرض , وافقت فيها الألفاظ المعاني أتم الموافقة , وكشفت عن المقصود من المعنى أتم كشف ، كما كان الهدف أيضاً أن نقف على مدى وفاء الصورة

البيانية بالمعنى ، وقدرتها على تمثيله للأذهان في الحكم ، وهذا جانب يبين أثر الصور البيانية في إيضاح المعاني ، وترسيخها في النفوس . ولقد تناولتُ بالشرح والتحليل بعض هذه الحكم التصويرية الرائعة وأشرت إلى الحكم الأخرى التي لم أتناولها بالدراسة والتحليل لمن أراد التوسع . ولعل هذا البحث يكون خطوة على هذا الطريق تتلوها خطوات , فالشيخ له جهود أخرى في بعض كتبه ورسائله التي وضعها للسالكين , ومنها " **تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس** " ([1]) ففيه عشرات الصور البيانية التي عرضها في صور تمثيلية تنبع من صميم البيئة وحياة الناس – وإن لم يَصُغْها الشيخ في شكل حكم كما فعل هنا - ولكنها جديرة بالدراسة لما لها من أثر في تهذيب النفس ، وتطهيرها من الشهوات , كما يحتاج إليها الدعاة لضرب الأمثال للناس , ولأجل التعليم والتوجيه في ميادين التربية فابن عطاء عالم وأديب له أشعار رائعة ورقيقة في الزهد , وفي منهج الصالحين . وهذه الموهبة الشعرية قد ساعدته في ميدان دعوته حيث صاغ أروع العبارات التي كانت زاداً للسالكين , ونظم أجمل الأبيات التي تمثّل بها الناس في الزهد والورع , وكتب أعذب الكتابات في طريق السالكين ، وكتبه المطبوعة التي سيأتى الحديث عنها فيما بعد خير شاهد على ذلك ، وأصدق دليل .

وقبل الشروع في البحث أقدم تمهيداً يتضمن : ترجمة موجزة لابن عطاء أبين من خلالها ما كان يتمتع به الشيخ من منزلة علمية ، وفصاحة وبلاغة , وملكة شعرية , وأسلوب أدبي رائع ، يتلوها تعريف موجز بالحكم وموضوعها , وأسلوبها بشكل عام , وهو تمهيد لابد منه للموضوع **ونحن بصدد الحديث عن الصورة البيانية في الحكم العطائية .**

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم , وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل , والسر والعلن , وأن يعلمنا ما ينفعنا , وأن ينفعنا بما علمنا إنه سميع قريب مجيب.

---

(1) من كتب الشيخ في تهذيب النفس والزهد في الدنيا , وقد اشتمل على كثير من الأمثال , وقد طبعته مطبعة الحلبي – الطبعة الثانية بتاريخ (1357) هـ (1956) م .

تمهـــــــيد

ترجمة موجزة لابن عطاء

اسمه ونسبه : هو " الإمام تاج الدين أبو الفضل وأبو العباس أحمد بن محمد الشاذلي بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي نسباً ، المالكي مذهباً الإسكندري داراً ، الشاذلي طريقة " ([1]) .

مكانته ومنزلته العلمية في عصره : كان رحمه الله جامعاً لأنواع العلوم من تفسير , وحديث , ونحو , وأصول , وفقه , وغير ذلك ([2]) وكان جده عبد الكريم فقيهاً شرح المدونة ([3]) ، وكان (رحمه الله) متكلماً على طريقة أهل التصوف , واعظاً انتفع به خلق كثير , وسلكوا طريقه , وكان شاذلي الطريقة ينتمي للشيخ أبي الحسن الشاذلي , وأخذ الطريقة عن أبي العباس المرسي (رحمه الله) عن الشيخ أبي الحسن (رحمه الله) , ولقد كان الشيخ هو

---

(1) ينظر ترجمته في ذيول العبر للذهبي صـ21 ، 22 ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1405) هـ (1985) م ، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان لعبد الله اليافعي 4/ 185 ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1417) هـ (1997) م ، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي 23/9 ، 24 ترجمة رقم (1297) ، ط دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي ، والديباج المذهب في أعيان المذهب لابن فرحون ص 131 ، الترجمة رقم (127) ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1417) هـ (1996) م ، و الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر 273/1 ، 274 , الترجمة رقم (700) ، ط دار الجيل (1414) هـ (1993) م ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي 224/8 ، 225 ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1413) ه (1992) م ، وغربال الزمان في وفيات الأعيان ليحيى الحرضي اليماني صـ 580 ، 881 ، ط مطبعة زيد بن ثابت بدمشق (1405) هـ (1985) م ، وطبقات الشعراني لواقح الأنوار في طبقات الأخيار 27/2 ، ط دار الطباعة العامرة الشرقية (1299) هـ ، وكشف الظنون للحاج خليفة675/1 , ط دار إحياء التراث العربي ، وشذرات الذهب لابن العماد 36/8 – 38 ، ط دار ابن كثير ، ط أولى (1413) هـ (1993) م ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني 1/ 107 ، 108 ، ط دار الكتاب الإسلامي ، وإيضاح المكنون لإسماعيل البغدادي ، 413/3 , ط دار إحياء التراث العربي ، وهدية العارفين لإسماعيل البغدادي 103/5 , ط دار إحياء التراث العربي ، وجامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني 1/ 525 ، 526 ، ط مركز بركات رضا بالهند (2001) م ، والأعلام للزركلي 221/1 ,222 , ط دار العلم للملايين ، ط الخامسة عشرة (2002) م ، ومقدمة لطائف المنن ص7 ، ط دار المعارف ، ط ثالثة (2006) م .

(2) الديباج المذهب ص131

(3) ينظر شرح ابن عجيبة على الحكم ص324

المتكلم على لسان الصوفية في زمانه ، بل كان " أعجوبة زمانه في كلام التصوف " كما يقول ابن فرحون ([1]) . وقال عنه الذهبي ت (748) هـ : " كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس , ومشاركة في الفضائل , ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقي لما رجع من مصر معظماً لوعظه وإشارته , وكان يتكلم في الجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم فكثر أتباعه , وكانت عليه سيما الخير " ([2]) . وكلمة الإمام الذهبي هنا في الشيخ كلمة لها وزنها ؛ حيث إن الذهبي من أهل العلم بأحوال الرجال ومنازلهم في العدالة , وهو إمام في هذا الفن ، وعلى معرفة تامة بأقدار العلماء , وما لهم وما عليهم ، وكتبه في الجرح والتعديل عليها التعويل عند أهل العلم والحديث نظراً لدقته وضبطه . ولقد قال ابن حجر ت (852) هـ ضمن ترجمته : " وكانت جنازته حافلة رحمه الله تعالى " ([3]) . ولقد كان ابن عطاء واعظاً شديد التأثير في القلوب , وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وله ذوق ومعرفة بكلام الصوفية وآثار السلف , وله عبارة عذبة لها وقع في القلوب , وكانت له مشاركة في الفضائل , وكان الناس ينتفعون بإشارته مع وقعه في النفوس وجلالته عندهم .

شيوخه : كان ابن عطاء عالماً متنوع المواهب ، وصوفي صاحب ذوق وحكمة ، وله شيوخ في مختلف الفنون ، ولقد قال الكمال جعفر عنه كما سبق : " سمع من الأبرقوهي ، وقرأ النحو على المحي الماروني ، وشارك في الفقه والأدب ، وصحب المرسي " ([4]) . ولقد صنف ابن عطاء كتاباً في مناقب شيخه أبي العباس المرسي, وشيخ شيخه أبي الحسن الشاذلي ([5]) .

ابن عطاء عالماً وأديباً زاهداً : كان ابن عطاء مبرزاً في الفقه , وفي الدعوة إلى الله (عز وجل) ولما دخل في ميدان التصوف , وسار في طريق القوم كان أيضاً من المبرزين . فهو ممن جمع بين العلمين : علم السلف , وعلم التصوف , كما جمع أيضاً بين علوم الأدب واللغة , فجاءت عبارته رائقة

---

(1) الديباج المذهب في أعيان المذهب صـ131
(2) الدرر الكامنة 274/1
(3) الدرر الكامنة 274/1
(4) السابق 274/1
(5) وهو كتاب " لطائف المنن " الذي طبعته دار المعارف بتحقيق الأشتاذ الدكتور / عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق رحمه الله .

شائقة ، وفصيحة بليغة مما جعل لقوله قبولاً عند الناس ، ومكن لمحبته في القلوب .

شعره: ترك ابن عطاء شعراً حسناً ، ونظماً رقيقاً في طريق القوم , وحول الزهد في الدنيا , والسعي والعمل بجد للآخرة . ولقد ذكر كثيراً من شعره في كتابه " لطائف المنن " , ومن ذلك قوله في مدح العارفين , وإرشادهم للسالكين:

أَمُرتَقِبَ النجومِ مِنَ السَّمَاءِ نجومُ الأرضِ أَبْهَى فِي الضِّيَاءِ
فَتِلْكَ تُنِيرُ وَقْتاً ثُمَّ تَخْفَى وَهَذِي لَا تُكَدَّرُ بِالخَفَاءِ
هِدَايَةُ تِلْكَ فِي ظُلَمِ اللَيَالِي هِدَايَةُ هَذِهِ كَشْفُ الغَطَاءِ[1]

وقوله في مقام الرضا ، وأنه أتم من المحبة :

وكنتُ قديماً أطلبُ الوصلَ مِنهمُ فلمّا أتاني العلمُ وارتفع الجهلُ
تيقنتُ أَنَّ العبدَ لا طلباً لَهُ فإِنْ قَربوا فضلٌ وإن بعدوا عدلُ
وإن أظهروا لم يُظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو[2]

وله أبيات أخرى كثيرة متفرقة في موضوعات مختلفة , وأغراض متنوعة ، وقصيدة في مدح شيخه أبي العباس في ستة وثلاثين بيتاً , وقصيدة أخرى أجاب فيها على رجل مدح شيخه بأمر من شيخه في أربعة وأربعين بيتاً , وقصيدة في الوصية بالإيمان بالله , والتوكل عليه , والرضا بما قسمه , واللجوء إليه , وشكر نعمه في اثنين وستين بيتاً في آخر كتابه " لطائف المنن " [3] .

هذا ولقد أحصيت أشعاره في كتابه " لطائف المنن " فجاءت في مائة وستة وثمانين بيتاً .

أما عن أشعاره في كتابه " التنوير في إسقاط التدبير " فلقد جاءت في مواضع متفرقة منه ، وفي أغراض مختلفة : منها : ما ذكره في الصبر على البلاء ؛ لأن الله هو المبتلي , وذلك عند قوله : " إنما يعينهم على حمل الأقدار ورود الأنوار" يقول :

---

(1) لطائف المنن ص 38
(2) لطائف المنن صـ 59 ,60
(3) ينظر القصائد الثلاث المشار إليها في لطائف المنن صـ 185-188 ,208-210

وخفّفَ عنّي ما ألاقي مِنَ العَنَا بِأنَّكَ أنْتَ المبتَلِي والْمقدِّرُ
وما لامرئ عَمَّا قَضَى اللهُ مَعدِلٌ ولَيسَ لَهُ مِنْهُ الذي يَتخيُّر([1])

وله في الأنس بالله قوله :

يا بهجةَ الحسنِ التي ما مثلُها من بهجةٍ طُرِحت على الأكوانِ
لي فيك معنىً ما تبدّى سرهُ إلا ثنى طَرْفِي ، ومدّ عَناني([2])

هذا ولقد أحصيت أشعاره في كتابه " التنوير في إسقاط التدبير " فوجدتها أربعةً وخمسينَ بيتاً . أما عن الأشعار التي أوردها في كتابه " القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد "([3]) فليست له , ولكنه نقلها عن غيره من الشعراء ، والزهاد ، والحكماء في المقامات المختلفة .

أما عن كتابه " تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس " فليس له فيه شيء من الشعر , وإنما أكثر فيه من ضرب الأمثال الرائعة للنفس البشرية في حال إدبارها عن الله وانكبابها على الدنيا ,كما ضرب أمثالاً للقلب في حال نورانيته وإقباله على الله , وفي حال إظلامه وإدباره عن طريق الله سبحانه وتعالى .

أما عن كتابه " مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح " , وهو الكتاب الذي ألفه في الذكر , وفضله وأنواعه , وآدابه , فلقد نقل فيه أبياتاً متفرقةً من الشعر لغيره من الشعراء والزهاد ([4]) , وليس له فيه شيء من الشعر إلا في موضع واحد في فصل : " إقامة الدليل على أن الله واحد لا شريك له عقلاً ونقلاً " حيث يقول:

سماءٌ وأرضٌ وشُمّ الجبال كذاك البحارُ له شاهدُ
وعجز جميع الورى عن أقل أقل ذبابٍ له عابدُ
وفي كل شيء له آيةٌ تَدلُّ على أنَّه واحدٌ ([5])

بيته الأخير من الشهرة بمكان , ويردده الناس عند الحديث عن وحدانية الله , ودلائل قدرته وإبداعه فى الخلق . ونظرة سريعة إلى ما سبق من شعر ابن عطاء يتضح لنا ما كان يتمتع به من ذوق مرهف , ونزعة صوفية ظاهرة

---

(1) التنوير فى إسقاط التدبير ص 19 ، ط دار جوامع الكلم – (1999) م .
(2) السابق صـ242
(3) والكتاب طبعته مكتبة مدبولي ، بتخريج وتعليق / محمود توفيق الحكيم ، ط أولى سنة (2002) م ،
(4) ينظر مفتاح الفلاح صـ 33 , 45 , 107 وهذه مواضع الشعر في كتابه فقط . والكتاب طبعته مطبعة الحلبي سنة (1381) هـ (1961) م.
(1) ينظر السابق ص 81

يعلوها مسحة من الأدب . وشعره في الزهد في الدنيا , والترغيب في الآخرة , شعر عذب رقيق نابع من نفس ذاقت طعم الإيمان , ووجدت برد اليقين ؛ وذلك لأنه خرج من نفس صادقة مخلصة جمعت بين العلم والعمل ، وهما سلاحا المؤمن الصادق في سيره إلى الله (عز وجل) على بصيرة وهدى . ومن هنا فلقد كان لشعره أثر في نفوس الناس ولعبارته صدىً في حياة الزاهدين السالكين . ومن هنا فلقد سارت حكمه بين الناس مسرى الأمثال , وتناقلوها في كل مكان وزمان ، وما زالوا إلى يومنا هذا , كما أفاد منها الأدباء , والعلماء , والزهاد ؛ وذلك نظراً لصفاء عباراتها , وما تضمنته من الإيجاز , والتصوير الدقيق , واللفظ العذب الرقيق , وما اشتملت عليه من علوم أهل الطريق في السلوك والزهد , كما وضع عليها من الشروح القديمة والحديثة بالعربية ([1]) , والتركية ، والملوية ([2]) ما يدل على أهميتها ومكانتها عند الزاهدين والسالكين إلى الله عز وجل .

كما وضع عليها العلماء أكثر من نظم ([3]) بما يتناسب مع مكانتها , وما هي جديرة به , بل وترجمت إلى عدد من اللغات ([1])

---

(2) عدد شروح الحكم بالعربية قديماً وحديثاً واحد وخمسون شرحاً , ولقد وضع عليها العلامة أحمد بن محمد زروق ت (899) هـ وحده ستةً وثلاثين شرحاً كما ذكر أبو الفيض المنوفي , وشرحه لها من أحسن الشروح . ولقد ذكر في بعض شروحه أنه درس الحكم خمسة عشر درساً , وكتب كل مرة شرحاً من ظهر القلب كله بعبارة أخرى , وقيل : إن للشيخ زروق ثلاثة شروح على الحكم , لكن الأصح ما كتبه نفسه . ينظر كشف الظنون 675/1

(3) شرحها بالتركية قسطامويلي أحمد ماهر بن الحافظ محمد سعيد بن نور الدين محمد القسطموني الرومي الأديب الحنفي المعروف بـ للقلى أفندي زاده أحد رؤساء المحاكم العدلية بالقسطنطينية , وعنوان شرحه " المحكم في الحكم " . وهو تركي نظماً ونثراً وإيضاحاً , وهو مطبوع في مجلدين . أما شرح المالوية فهو لمؤلف مجهول , وهو مطبوع بمكة ، ذكره بروكلمان . ينظر الحكم لابن عطاء أقوى دستور تربوي صاغه في القرن السابع الهجري للأستاذ / أحمد عز الدين ، ط منتدى دار الإيمان ، بدون تاريخ .

(1) نظمها ابن عبّاد الرندي ت (792) هـ , وذكر الشيخ زروق أن هذا النظم (800) ثمانمائة بيت , ونظمها كمال الدين بن علي شريف ت (906) هـ وسمى نظمه " فيض الكرم " , ونظمها عبد الكريم بن العربي بنيس في نظم سماه " الواضح المنهاج في نظم ما للتاج " ونظمها ابن إبراهيم بن مالك , وعلي شهاب الدين محمد بن سعد الدين وسمى نظمه " فيض الكرم في شرح الحكم " , ونظمها عبد الله بن علي المكي الملقب بـ " الفارس " في نظم سماه " فاتحة السالك لمولاه " , ونظمها أبو الفضل محي الدين بن حسين الملاح مع المناجاة , وسمى نظمه " الغرر البهية في نظم متن الحكم السكندرية " , ونظمها الشيبخ أحمد بن الصديق الغماري .

كما قام بعض العلماء بتخريج أحاديث بعض شروحها ([2]) .

الحكم وموضوعها : وضع ابن عطاء هذه الحكم الرائعة , وعددها مائتان وأربع وستون حكمةً ([3]) لإيضاح طريق العارفين الموحدين , وبيان منهج السالكين المتجردين , وكما يقول ابن عبّاد النفَّزي ت (792)ه عنها : " من أفضل ما صنف في علم التوحيد , وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد ..." ([4]) .

وقد ذكر ابن عجيبة أن حكم ابن عطاء مضمنة من علوم القوم ([5]) أربعةً : " الأول : علم التذكير والوعظ , وقد حاز منه أوفر نصيب ... , والثانى : تصفية الأعمال , وتصحيح الأحوال بتجلية الباطن بالأخلاق المحمودة , وتطهيره من الأوصاف المذمومة , وقد حاز منها جملة صالحة ... والثالث : تحقيق الأحوال والمقامات , وأحكام الأذواق والمنازلات , وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه ... والرابع : المعارف والعلوم الإلهامية , وفيه منها ما لا يخفى ، لكن كتبه ملئت بشرحها لا سيما " التنوير " , و " لطائف المنن " اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب . وبالجملة فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان , واختصار الألفاظ , والمسلك الذي سلك فيه مسلك توحيدي لا يسع أحد إنكاره ولا الطعن فيه , ولا يدع للمعتني به صفة حميدة إلا كساه إياها , ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه بإذن الله " ([6]) .

---

(2) فهناك الحكم وشرحها باللغة الإنجليزية , وترجمة كاملة للحكم باللغة الفرنسية , وشرح لبعضها بالفرنسية أيضاً , والحكم كاملة باللغة الأسبانية , وشرح ابن عبّاد بالإنجليزية , وشرح ابن عجيبة بالإنجليزية أيضاً .

(3) للسيد عبد العزيز بن الصديق الغماري تخريج على أحاديث شرح ابن عجيبة للحكم .

(4) هناك حكم أخرى منسوبة لابن عطاء , وهي المعروفة بـ " الحكم الصغرى " , وعددها ستون حكمةً ألحقها الدكتور / عاصم إبراهيم الكيّالي في آخر شرحه للمختارات من الحكم العطائية , وكذلك في آخر كتاب " الواضح المنهاج في نظم ما للتاج " لعبد الكريم بن العربي بنيس , وهو نظم للحكم العطائية بتحقيق الكيّالى أيضاً , ولكن عند التأمل يتضح أن هذه الحكم ليست لابن عطاء الله – وإن حاول كاتبها أن ينسج على منواله – فقد خانه التوفيق في ذلك . كما أن هذه الحكم الصغرى لم يشر إليها أحد ممن ترجموا لابن عطاء وذكروا مؤلفاته , كما لم يشر إليها أحد من شراح الحكم قديماً , فأسلوبها ينزل في الفصاحة والبلاغة عن درجة الحكم , ويبدو أثر الافتعال واضحاً عليها , كما أن أكثر معانيها في حقيقتها تكرار لمعاني الحكم بأسلوب آخر فليتأمل ذلك !

(5) ينظر شرح الحكم لابن عباد النفزي 2/1

(6) أي من علوم الصوفية الزاهدين السالكين إلى الله .

(1) ينظر شرح الحكم لابن عجيبة صـ 30 باختصار .

ولذلك لما عرض ابن عطاء الحكم على شيخه أبي العباس المرسي فتأملها وقال له : " لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء[للغزالى] وزيادة "([1])

فابن عطاء الله قد بين بهذه الحكم طريق القوم مع الإيجاز في العبارة , والوضوح في المعنى , وحسن الديباجة , وروعة التصوير ، فلله دره !

أسلوب الحكم : تميز أسلوب ابن عطاء في هذه الحكم بالفصاحة والبلاغة , والدقة والبراعة , وحسن الصياغة , وجميل العبارة مع الإيجاز الجامع , والاختصار النافع , والتصوير الدقيق الرائع. ومن هنا فلقد نالت حكمه من الذيوع والانتشار ما لم ينله كلام غيره من كبار السالكين.ومما تميزت به الحكم

أولاً : الإيجاز : وأقصد بالإيجاز هنا ما يكون بإيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ ([2]) , وهو الإيجاز الذي يكون بما زاد معناه عن لفظه , وهو إيجاز القصر ([3]) عند البلاغيين .وهذا القسم من الإيجاز التنبه له عسر لأنه يحتاج إلى فضل تأمل , وطول فكرة لخفاء ما يستدل عليه , ولا يستنبط ذلك إلا من رست قدمه في ممارسة علم البيان , وصار له خليقة وملكة كما يقول ابن الأثير ([4]) .

فمن هذا الإيجاز ما ذكره ابن عطاء في الحكمة الثانية والخمسين حيث يقول: **" إنَّما أَورَدَ عَلَيْكَ الوَارِدَ لِتَكُونَ عَليهِ وَارِداً "** ([5]) .وقوله في الحكمة الثامنة

---

(2) ينظر كشف الظنون 675/1

(3) ينظر سر الفصاحة صـ 205 – 211 ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1402) هـ (1982) م .

(4) ذكر ابن الأثير أن إيجاز القصر ينقسم إلى قسمين : أحدهما : ما دل لفظه على محتملات متعددة , وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها . والثاني : ما دلت ألفاظه على محتملات متعددة , ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها , بل يستحيل ذلك . والأول : إيجاز التقدير . والثاني : إيجاز القصر , والأخير أعلى طبقات الإيجاز مكاناً وأعوزها إمكاناً , وإذا وجد في كلام البلغاء فإنما يوجد شاذاً ونادراً . ينظر المثل السائر 264/2 ، 265 ، 338 ، ط دار نهضة مصر ، ط ثانية .

(5) ينظر السابق 264/2 ، 338

(1) فالوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية , واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه سبحانه , والدخول إلى حضرته . والوارد : نور إلهي يقذفه الله في قلب من أحب من عباده , وهو على ثلاثة أقسام : الأول : وارد الانتباه للخروج من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة , والثاني : وارد الإقبال : وهو نور يقذفه الله في قلب عبده فلا يزال مشتغلاً بذكره ... , والثالث : وارد الوصال : وهو نور يستولي على قلب العبد ... , وقد أشار إلى القسم الأول بهذه الحكمة ... " والتفصيل في شروح الحكم . ينظر شرح ابن عباد النفزي 1/ 45 , ط مصطفى البابي الحلبي ، ط الأخيرة (1358) هـ (1939) م ، وشرح ابن عجيبة صـ 125 ,126, ط المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ ، وشرح الشرقاوي بهامش النفزي 45/1

والثمانين : **" العَطاءَ مِنَ الخَلْقِ حِرْمَانٌ , والمَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ "** (1) وغير ذلك من الحكم الرائعة المشتملة على الإيجاز الدقيق (2) .

ثانياً : الاقتباس (3) **من القرآن والسنة** : ومن مواضع الاقتباس من القرآن ما ذكره في الحكمة العشرين حيث يقول : **" ما أَرادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا إِلَّا ونَادَتْهُ هَـواتِفُ الحَقِيقَةِ الذي تَطْـلُبُ أَمَـامَكَ , ولَا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ الـمُكَوِّنَاتِ إِلَّا ونَادتْهُ حَـقَائِقُهَا ﴿... إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ...﴾**[البقرة : 102] (4) ، وقوله في الحكمة الثالثة والثلاثين : **" الحَقُ لَيسَ بِمَحجوبٍ , وإِنَّمَا المَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إليهِ ؛ إِذْ لَو حَجَبهُ شَيءٌ لَسَتَرهُ مَا حَجَبهُ , ولَو كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرٌ , وكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُو لَهُ قَاهِرٌ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ...﴾**[الأنعام : 18] (5) .

---

(2) عطية الخلق حرمان لك على التحقيق لما في ذلك من رؤيتك لغير الله , ووقوفك مع حظوظك وشهواتك , ومنْع الله لك إحسان لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه . وإن شئت قلت : العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك , وتقلد منتهم في أخذ عطيتهم , والمنع من الله إحسان لأنه حبيبك , وكل ما يفعل الحبيب محبوب . ينظر شرح النفزي 71/1 , وشرح ابن عجيبة صـ 187 ,188

(3) ينظر مثلاً الحكم (3 , 9 , 22 , 27 , 55 , 75 , 111 , 123 , 151)

(4) الاقتباس : أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه . أي يكون خالياً من الإشعار بذلك . والإشعار به كأن يقال : قال الله تعالى , أو نحو ذلك . وقد أجاز ذلك جماعة من المتأخرين للمتمكن من العربية في النثر في مقام الوعظ والثناء والدعاء . أما تضمينه في الشعر فقد صرح أبو بكر المالكي بأن تضمينه في الشعر مكروه وفي النثر جائز , وقال الشرف إسماعيل بن المقري اليمني صاحب مختصر الروضة في شرح بديعيته : ما كان في الخطب والمواعظ , ومدحه صلى الله عليه وسلم – ولو في النظم – فهو مقبول , وغيره مردود ... هذا ولقد سمى القدماء هذا النوع تضميناً ، وسماه المتأخرون اقتباساً , وسموا ما كان من شعر تضميناً . قال ابن حجة الحموى : إن العلماء في هذا الباب قالوا : إن الشاعر لا يقتبس بل يعقد ويضمن . أما الناثر فهو الذي يقتبس كالمنشيء والخطيب . ينظر فى تفصيل ذلك وأدلته البرهان 1/ 481 – 483 , ط المكتبة العصرية ، والإتقان 1/ 113 , 114 , ط دار الفكر ، والإيضاح 4/ 111 , وبغية الإيضاح 4 /111 , ط مكتبة الآداب (1417) هـ (1997) م ، وخزانة الأدب 2 / 455 – 459، ط درا ومكتبة الهلال ، ط ثانية (1991) م .

(5) اقتبس هنا من قوله تعالى في شأن الملكين هاروت وماروت : ﴿... وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ...﴾ ، وراجع في شرح هذه الحكمة شرح النفزي 1/ 22 , وشرح ابن عجيبة صـ 82 - 84

(1) اقتبس هنا من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ...﴾. وراجع في شرح هذه الحكمة شرح النفزي 1/ 29 , 30 , وشرح الشرقاوي 1 / 29 , 30 , وشرح ابن عجيبة صـ 98 ,90

وقوله في الحكمة الثامنة والستين : **" قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ , وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُم بِمَحبَّتِهِ ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾**[الإسراء : 20] (1) .

وقوله في الحكمة مائة وسبع وسبعين : **" إِنْ أَردتَ وُرُودَ المَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحْ الفَقْرَ والفَاقَةَ لَديْكَ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ...﴾** [التوبة : 60] (2) . ويلحظ هنا أن ابن عطاء في بعض حكمه كان يقتبس بعض الآية كما في الحكمة العشرين , والحكمة الثالثة والثلاثين , والحكمة السابعة والسبعين بعد المائة , أو يقتبس الآية كاملة كما في الحكمة الثامنة والستين (3) .

أما عن الاقتباس من الحديث : فقد جاء في الحكمة مائة وخمس وتسعين حيث يقول : **" عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِه فَأَوجَبَ عَلَيْهِمْ طَاعَتَهُ فَسَاقَهُمْ إِليهِ بِسَلاسِلِ الإِيجَابِ " عَجِبَ رَبُّكَ مِنَ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ "** (4) .

ثالثاً : التصوير الدقيق : والتصوير هو موضوع هذا البحث , وسأشير هنا في عجالة إلى بعض الحكم المشتملة على التصوير البياني من تشبيه , واستعارة , وكناية . **فمن التشبيه** : قوله في الحكمة الثانية والأربعين **" لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى يَسِيرُ والمَكَانُ الذي ارْتَحلَ إِليهِ هُوَ الذي ارْتَحَلَ عَنْهُ , ولَكِنْ ارْحَلْ مِنَ الأَكْوَانِ إِلَى المُكَوِّنِ "** (5) . **ومن الاستعارة**

---

(2) ينظر في شرح هذه الحكمة شرح النفزي 1/ 61 , وشرح ابن عجيبة صـ 98 , 99

(3) ينظر في شرح هذه الحكمة شرح النفزي 2/ 14 , وشرح ابن عجيبة صـ 350

(4) ينظر للاستزادة الحكم (30 , 41 , 65 , 150 , 197 , 215 , 216 , 217) .

(5) اقتبس هنا من الحديث الصحيح الذي رواه أحمد ، والبخاري ، وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عجب ربنا من قوم يدخلون الجنة في السلاسل " وفي رواية " يقادون إلى الجنة بالسلاسل " والحديث في صحيح البخارى – كتاب فضل الجهاد والسير – باب الأسارى في السلاسل – ورواه أبو داود - كتاب الجهاد – باب في الأسير يوثق – ح (2677) – والحديث في المشكاة ح (3960) 3/8 ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1422) هـ (2001) م .

(1) فالتشبيه هنا لحال من زهد في الدنيا وانقطع إلى الله يطلب بذلك راحة بدنه , وإقبال الدنيا عليه , وكمن زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق , والعز , وتربية المهابة في قلوب الناس , أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات , أو زهد فيها بطلب القصور والحور . فهذا كله رحيل من كون إلى كون , فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو في موضعه , فالذي ارتحل منه هو الذي ارتحل إليه , فمن كانت همته الحظوظ النفسانية فحاله حال حمار الساقية في السير دائم , وهو في موضعه قائم يظن أنه قطع مسافة مما طلب , وما زاد إلا نقصاً مع تعب . شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 109

: قوله في الحكمة الثانية عشرة : **" مَا نَفَعَ القَلْبَ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ "**(1) . **ومن الكناية** : قوله في الحكمة مائة وثلاث عشرة : **" وُصُولُك إِلَى اللهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ , وإِلَّا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ , أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ "** (2) . وسيأتي الحديث عن التصوير في الحكم فيما بعد إن شاء الله .

رابعاً : الاشتمال على السجع والتوازن , مع صفاء العبارة ورقتها , والبعد عن التكلف :

والسجع ميدان فسيح صال وجال فيه كثيرٌ من الكتاب والأدباء , فمنهم من أحسن وأجاد , ومنهم من أساء وتكلف . وابن عطاء جاء سجعه في الحكم من السجع الرقيق البديع غير المتكلف , ومنه ما قصرت فقراته وتساوت (3) , وما طالت فيه الفقرة الثانية ثم الثالثة (4) ،وكذلك التوازن (5) جاء في بعض الحكم ,

---

(2) فالاستعارة هنا في كلمة " ميدان " بالفتح والكسر فى الميم , وهو مجال الخيل استعير هنا للأفكار إذ ترددها في مواقعها كتردد الخيل في مجالها . شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 56

(3) ذكر أهل الفن في هذا المقام اصطلاحات وألفاظ تداولوها بينهم تقريباً لفهم المعاني , فمنها السير , والرحيل , وذكر المنازل , والمناهل والمقامات , والرجوع ، والوقوف , وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس , ومحاربتها , وقطع العوائق والعلائق عنها , أو الوقوف مع شئ منها . شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 362 , 363

(4) وهو من أحسن السجع وأشرفه للاعتدال فيه , وأحسنه ما كان مؤلفاً من لفظين لفظين , ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ , وأربعة وخمسة , وكذلك إلى العشرة , وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل , والأمثلة والتفصيل في كتاب المثل السائر صـ 150 , 151 , وخزانة الأدب 412/2

(5) كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر1-3] ، ويشترط ألا يكون الفصل الثاني أطول من الأول طولاً يخرجه عن الاعتدال خروجاً كثيراً , فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً . والسجع الطويل تتفاوت درجاته في الطول , فمنه ما يقرب من السجع القصير , ومنه ما يزيد على ذلك . وينظر تفصيل ذلك وأمثلته في المثل السائر ص 150 , 151 , وخزانة الأدب 412/2

(6) وسماه الخطيب الموازنة , وهو أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية كقوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية : 15 , 16] فإن كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله فى الوزن خص باسم " المماثلة " كقوله = = = تعالى: ﴿ وَآَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات : 117 , 118] فالموازنة التساوي فيها في الوزن دون التقفية , وعليه فبين السجع والموازنة مباينة ؛ لأنه يجب في الموازنة عدم الاتفاق في التقفية ، بخلاف السجع فإنه يشترط فيه الاتفاق في التقفية . ينظر الإيضاح 84/4 , وشروح التلخيص 456/4 , 457 , وحاشية الدسوقي على مختصر السعد 456/4

وكل ذلك يدل على ما أولاه ابن عطاء لحكمه من عناية ودقة في اختيار العبارة , وانتقاء الألفاظ المعبرة الملائمة .

فمن السجع القصير : قوله في الحكمة التاسعة :" **تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال"** وقوله في الحكمة الثامنة والثمانين : " **العطاء من الخلق حرمان , والمنع من الله إحسان** " ، وفي الحكمة التاسعة بعد المائة : " **لا تطالب ربك بتأخر مطلبك , ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك** "وفي الحكمة أربع وأربعين ومائة : " **الأكوان ثابتة بإثباته , وممحوة بأحدية ذاته** " , وفي الحكمة مائتين وأربع وعشرين : " **ما تجده القلوب من الهموم والأحزان , فلأجل ما مُنعَتْه من وجود العيان** " , وفي الحكمة ست وأربعين ومائتين : " **إنما وسعك الكون من حيث جثمانيتك , ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك** " . وهنا تساوت الفقرتان , وهذا من السجع الحسن المعتدل لتساوي الفقرات فيه . ويلاحظ على هذه الحكم مناسبة الألفاظ لمعانيها , وتلاحمها مع قوافيها .

ومن السجع الحسن المعتدل الذي طالت فيه الفقرة الثانية عن الأولى : قوله في الحكمة الحادية والعشرين : " **ما من نفس تبديه , إلا وله قَدَر فيك يمضيه** " . ومن ذلك قوله في الحكمة السادسة والتسعين : " **معصية أورثت ذلاً وافتقاراً, خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً** " , وفي الحكمة الثالثة بعد المائة : " **العارف لا يزول اضطراره , ولا يكون مع غير الله قراره** " , وفي الحكمة مائة وثلاث عشرة : " **ورود الإمداد بحسب الاستعداد , وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار** " , وفي الحكمة مائة وتسع وعشرين : " **ما طلب لك شيء مثل الاضطرار , ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار** " , وفي الحكمة ست وسبعين ومائة : " **ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة** " . وهذه الحكم كما يلاحظ مما طالت فيه الفقرة الثانية عن الأولى , والسجع فيها من أحسن أنواع السجع .

ومن السجع الطويل : قوله في الحكمة الثانية : " **إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية , وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية** " , وفي الحكمة السادسة : " **لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك , فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك, وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد** " .

ومن التوازن : قوله في الحكمة الخامسة والأربعين : " **ما قل عمل برز من قلب زاهد , ولا كثر عمل برز من قلب راغب** " . والتوازن هنا بين العبارتين

في الوزن دون التقفية . وفي الحكمة الثانية عشرة ومائتين : **" لا يزيد في عزه إقبال من أقبل , ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر "**.

وكما يلاحظ أن بعض هذه الحكم قد ترشح بلون آخر من ألوان البديع كالمقابلة في الحكمتين الأخيرتين , وغيرهما من الحكم السابقة , وذلك مما يكسو السجع بلاغة ورونقاً وبهاءً .وهذه الحكم وغيرها إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى عناية ابن عطاء بألفاظ الحكم وتنضيدها , مع حسن اختياره للفواصل والعبارات , مع ما ترشحت به الحكم السابقة وغيرها من فنون البديع المعنوي واللفظي : كالطباق , والمقابلة , والجناس , وغير ذلك من المحسنات اللفظية التي يضيق المقام هنا عن ذكرها ؛ لأنها ليست من مقصود البحث . وإنما أشير هنا إلى أبرز خصائص الأسلوب في إيجاز ([1])

مؤلفاته :

ترك ابن عطاء الله مؤلفات كثيرة ومتداولة سار بذكرها الركبان , منها ما كتبه في الفقه , ومنها ما كتبه في التصوف وتهذيب النفس , وهذه المؤلفات منها ما هو مطبوع , ومنها ما هو مخطوط , ومنها ما هو مفقود , وهي كالتالي :

1- أنس العروس (مخطوط في التصوف) .
2- أصول مقدمات الوصول (مفقود) .
3- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس في الوصايا والعظات (مطبوع) .
4- التنوير في إسقاط التدبير (مطبوع) .
5- الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة (مطبوع)
6- الطريق الجادة في نيل السعادة (مفقود) .
7- عنوان التوفيق في آداب الطريق شرح قصيدة أبي مدين (ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا) ويليه رسالته من القاهرة لأصحابه من أهل الإسكندرية (مطبوع) .
8- القول المجرد في معرفة الاسم المفرد (مطبوع)
9- كيفية السلوك (مطبوع تحت اسم " ترتيب السلوك ، ورسالة في طلب العلم للشيخ) .

---

(1) من الحكم المشتملة على السجع (1 , 12 , 13 , 25 , 27 , 28 , 32 , 43 , 46 , 48 , 50 , 53 , 55 , 63 , 125 , 153 , 165 , 168 , 206 , 223 , 231 , 245 , 259) .

10- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس والشيخ أبي الحسن (مطبوع) .
11- مختصر تهذيب المدونة للبرادعي في الفقه (مفقود) .
12- المرقى إلى القدير الأبقى (مفقود) .
13- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح فى ذكر الكريم الفتاح (مطبوع) ([1])

وفاته :

توفي رحمه الله كهلاً بالمدرسة المنصورية بالقاهرة في نصف جمادى الأولى سنة تسع وسبعمائة (709) هـ ([2]) (1309) م , ودفن بمقبرة المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها بالقرافة , وكانت جنازته حافلة رحمه الله .

(1) ينظر في مؤلفاته إيقاظ الهمم ص 30 , ولطائف المنن ص 7 , وهدية العارفين 103/5 , والأعلام 222/1 , والحكم لابن عطاء الله أقوى دستور تربوي صاغه في القرن السابع الهجري .

(1) وفي خطط مبارك ذكر أن وفاته سنة (707) هـ ينظر الأعلام 222/1 قلت : كل من ترجم لابن عطاء لم يختلف في سنة وفاته أنها (709) هـ ، وقول صاحب الخطط أنه توفي سنة (707) هـ لا دليل فيما وقفت عليه من مصادر ترجمة ابن عطاء القديمة والحديثة ، فلا خلاف بين كتب التراجم أن وفاته كانت في السنة المذكورة ، فلعله خطأ أو سهو من المؤلف (رحمه الله) .

الفصل الأول: علم البيان ومباحثه

علم البيـان : ذكر البلاغيون أن علم البيان: " علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه "([1]) وهذا التعريف الذي استقر عليه علم البيان . والسكاكي هو صاحب التعريف السابق [(2)] . وكما هو معلوم أن أبواب البيان تنحصر في التشبيه , والمجاز , والكناية **" وسأتحدث هنا في هذه العجالة عن أبرز معالم التشبيه , والاستعارة , والكناية** . أما بالنسبة للمجاز المرسل فهو - وإن كان من أقسام المجاز اللغوي – إلا أن ابن عطاء لم يوله عنايته كما فعل بالنسبة للقسم الثاني من المجاز اللغوي وهو الاستعارة .

التشبيـه : التشبيه في اللغة : التمثيل يقال : شبه إياه : مثله ، والشَّبَه والشّبْه والشَّبِيه كالمثَل والمِثْل والمَثيل وزناً ومعنى ، والمتشابهات : المتماثلات ، ويقال : " شبهته بكذا إذا جمعت بينهما بوصف جامع " [(3)]

وفي الاصطلاح : " الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى " [(4)] وهذا هو تعريف الخطيب القزويني ، وعرفه ابن الأثير بأنه : " أن يثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به ، ويقال : هو الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني ، وأن أحدهما يسد مسد الآخر ، وينوب منابه ، سواءً كان ذلك حقيقةً أو مجازاً " ([5]) ، وزاد صاحب " جوهر الكنز " على تعريف ابن الأثير الأول قوله : " أن تثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به قصداً للمبالغة " ([6]) .

وفائدة التشبيه كما يقول ابن الأثير : " الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار " ([7]) فالتشبيه " يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً ؛ ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم

---

(2) ينظر المفتاح صـ182، والإيضاح 3/3 , 4 .
(3) ينظر الصورة البيانية للأستاذ الدكتور / محمد عثمان خيمر صـ19 ، ط مصر للخدمات العلمية ط أولى 1417هـ .
(4) ينظر اللسان مادة " شبه " 2189/3 ، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي 261/1 ، ط المقتطف .
(5) ينظر الإيضاح 7/3
(6) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير صـ90 ، ط المجمع العلمي العراقي (1375) هـ (1956) م .
(7) جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة لنجم الدين أحمد بن الأثير الحلبي صـ 60 ، ط مكتبة المعارف بالإسكندرية .
(1) السابق نفس الصفحة .

يستغن أحدٌ منهم عنه " ([1]) ، وذكر العلوي " أنك إذا أردت تشبيه الشيء بغيره فإنما تقصد به تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، فيستفاد من ذلك البلاغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه من مدح ، أو ذم ، أو ترغيب أو ترهيب ، أو كبر ، أو صغر ، أو غير ذلك من الوجوه التي يقصد بها التشبيه ..."([2]) .

أما عن تأثير التشبيه فيقول القزويني : " فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره ، وفخامة أمره في فن البلاغة ،وأن تعقيب المعاني به لا سيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحاً كان أو ذماً أو افتخاراً أو غير ذلك ..." ([3]) .

ولقد بين الإمام عبد القاهر في كتابه " أسرار البلاغة " أسباب تأثير " التمثيل " الذي هو أخص من التشبيه ، فكان مما قال : " فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ..." ([4])

مباحث التشبيـه ([5]) :

وهي : (1) مبحث الطرفين . (3) مبحث الأداة .

(2) مبحث وجه الشبه . (4) مبحث الأغراض .

وسأركز هنا على الحديث على مبحثي " الطرفين , ووجه الشبه " فقط من هذه المباحث نظراً لصلتهما بموضوع البحث , وللاختصار فيما لا يحتاج البحث إليه حيث إننا لسنا بصدد البحث في موضوع التشبيه من الناحية البلاغية

---

(2) كتاب الصناعتين صـ 243 باختصار ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ط أولى (1371) هـ (1952) م .
(3) الطراز للعلوي 142/1 ، ط المكتبة العصرية ، ط أولى (1423) هـ (2002) م .
(4) بغية الإيضاح 7/3 باختصار .
(5) أسرار البلاغة صـ 121 باختصار ، ط دار المدني بجدة (1412) هـ (1919) م .
(6) وهذا التقسيم مأخوذ من كلام القزويني في الإيضاح حيث يقول : " ثم النظر في أركان التشبيه وهي أربعة : طرفاه ، ووجهه ، وأداته ، وفي الغرض منه ...." السابق 13/3 باختصار .

والاصطلاحية , وإنما نأخذ من مباحث الفن ما يخدم الموضوع والغرض هنا لأننا سنحتاج إليه بعد ذلك عند الحديث عن الصورة التشبيهية في الحكم .

أولاً:مبحث الطرفين : والطرفان هما المشبه والمشبه به ، وهما الركنان الأساسيان فيه ، ولا يقال تشبيه إلا إذا كانا فيه وقد يحذف المشبه للعلم به ولكنه ملحوظ في التقدير كالملفوظ فإذا سئلت " كيف علي " ؟ قلت : كالأسد شجاعةً . فإن التقدير "هو كالأسد شجاعة "فترى المشبه غائباً حاضراً " [1].

ثانياً : مبحث وجه الشبه : ووجه الشبه : " هو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخييلاً ، والمراد بالتخييل ألا يمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل " ([2]) وللتشبيه باعتباره ثلاثة تقسيمات أكتفي بذكر أهمها وهو الذي عُنِي به ابن عطاء في حكمه .

تقسيم التشبيه باعتباره الوجه إلى تمثيل وغير تمثيل : صاحب هذا التقسيم هو الإمام عبد القاهر الجرجاني حيث فرق بين التشبيه والتمثيل ، وكان يرى كغيره من الباحثين أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل عندهم تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً " [3] ، وتلاه السكاكي ثم الخطيب القزويني وهؤلاء الثلاثة كانت لهم أياد بيضاء على هذا الفن الجميل ، فقد عنوا عناية تامة بدراسته وإظهار محاسنه والكشف عن لطائفه وأسراره [4]

وأبدأ بالإمام عبد القاهر الجرجاني فلقد رأى أن **التشبيه غير التمثيلي** : " ما كان وجه الشبه فيه أمر بيناً لا يحتاج إلى تأول وإعمال فكر ، وصرف عن الظاهر ؛ لأن المشبه فيه يشارك المشبه به في صفته كتشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر، وكالتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخدود بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار ...أو جمع الصورة واللون معاً كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور ... وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه قامة الرجل بالرمح ... وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره... **أما التشبيه التمثيلي عند عبد القاهر** فهو ما لا يكون

---

(1) ينظر علم البيان للأستاذ الدكتور / بدوي طبانه صـ 56 ط الأنجلو ط الرابعة 1397هـ
(2) الإيضاح 14/3 , 15
(3) أسرار البلاغة صـ95
(4) بحوث فى البيان ومراجعه صـ 4 , 5

الوجه فيه أمراً بيناً بنفسه ، بل يحتاج في تحصيله إلى ضرب من التأول وصرف عن الظاهر ؛ لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية ، ويتحقق ذلك فيما إذا كان وجه الشبه ليس حسياً ولا من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية الحقيقة ، ولكنه يكون عقلياً غير حقيقي أي غير مقرر في ذات الموصوف ، ومثاله قولنا : هذه حجة كالشمس في الظهور ، فقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها . ولكن هذا التشبيه لا يتم إلا بتأول ، وذلك أن نقول : حقيقة ظهور الشمس أو غيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، والشبهة نظير الحجاب لأنها فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه ... فقد احتجنا في تحصيل الشبه بين الحجة وبين الشمس , وهو إزالة الحجاب في كل إلى مثل هذا التأول والصرف عن الظاهر . ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً ، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ، ويعطي المقادة طوعاً ، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء ، وهو ما ذكرته لك ، ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل ، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة " ([1]) .

" وخلاصة رأي عبد القاهر أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه حسياً ، أي مدركاً بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ... سواء كان هذا الوجه الحسي مفرداً أم مركباً ... وكذلك ما كان الوجه فيه عقلياً حقيقياً ، أي ثابتاً ومقرراً في ذات الطرفين كالأخلاق والغرائز والطباع ... والتمثيل أو التشبيه التمثيلي : ما كان وجه الشبه فيه ليس حسياً ولا من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية الحقيقية ، بل يكون عقلياً غير حقيقي ، أي غير متقرر في ذات الطرفين فلا يكون بيناً ظاهراً بنفسه ، بل يحتاج في تحصيله إلى تأول ؛ لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية ... سواء كان هذا الوجه العقلي مفرداً أم مركباً " ([2]) .

أما عن الخطيب القزويني فلقد قسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى تشبيه تمثيلي وغير تمثيلي

---

(1) أسرار البلاغة صـ90 – 93 باختصار شديد .

(1) علم البيان ، دراسة تحليلية لمسائل البيان للدكتور / بسيوني فيود صـــ 80 ، ط مؤسسة المختار ، ط ثانية ، القاهرة (1418) (1998) م .

فالتمثيلي : "ما كان وجه الشبه فيه وصفاً منتزعاً من متعدد أمرين أو أمور . وهذا يتحقق في كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد سواء أكان ذلك الوجه حسياً أم عقلياً .

وغير التمثيلي : ما كان وجه الشبه فيه على خلاف ذلك ، وهذا يتحقق في كل تشبيه يكون وجه الشبه فيه مفرداً سواء أكان الوجه حسياً أم عقلياً " ([1]) .

" فرأي الخطيب القزويني وجمهور البلاغيين أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه مفرداً حسياً أو عقلياً ، والتشبيه الثمثيلي : ما كان الوجه فيه مركباً سواء أكان حسياً أم عقلياً .. فمدار التفرقة عندهم بين التشبيه والتمثيل تركيب الوجه وإفراده بغض النظر عن كونه حسياً أم عقلياً .. فإذا كان وجه الشبه هيئة منتزعة من شيئين أو عدة أشياء كان وجه الشبه تمثيلاً سواء أكانت هذه الهيئة حسية أم عقلية .. وإذا كان وجه الشبه مفرداً بنوعيه أي حسياً أو عقلياً كان التشبيه غير تمثيل .

وخلاصة هذه الآراء في التفرقة بين التشبيه والتمثيل والتي هي مبنية على إفراد وجه الشبه أو تركيبه وحسيته أو عقليته أنه إذا كان وجه الشبه مركباً عقلياً غير حقيقي كان التشبيه تمثيلياً بإجماع الآراء ، وإذا كان الوجه مركباً حسياً كان التشبيع تمثيلياً عند الخطيب وجمهور البلاغيين ، وغير ثمثيلي عند عبد القاهر والسكاكي لكونه غير حسياً . وإذا كان وجه الشبه واحداً عقلياً غير حقيقي أي غير متقرر في ذات الطرفين كان التشبيه تمثيلياً عند عبد القاهر فقط وليس تمثيلياً عند السكاكي والخطيب والجمهور لفقده التركيب الذي يشترطونه في التشبيه التمثيلي ... وعبد القاهر يغض النظر عن هذا التركيب . وإذا كان الوجه واحداً حسياً ، أو واحداً عقلياً حقيقياً لكونه من الأخلاق والغرائز والطباع الحقيقة كان التشبيه غير تمثيلي بإجماع الآراء لفقده التركيب الذي يشترطه السكاكي والخطيب وجمهرة البلاغيين ، ولكونه حقيقاً ، أي متقرراً في ذات الطرفين ، وعبد القاهر يشترط في التمثيل أن يكون وجهه عقلياً غير حقيقي " ([2])

الاستعارة : عرفت الاستعارة بتعاريف كثيرة عبر تاريخها الطويل[1] ، والتعريف الذي اشتهر عند المتأخرين من البيانيين أنها : " استعمال اللفظ في

---

(2) الإيضاح 3/ 50 ، 51

(1) علم البيان ، دراسة تحليلية لمسائل البيان صـ 82 باختصار .

(2) ينظر تعريفات الاستعارة في بحث الاستعارة نشأتها وتطورها للأستاذ الدكتور / محمود شيخون صـ 72 , 74

غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي " [2] .

أقسام الاستعارة باعتبار الطرفين [3] :

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين إلى : تصريحية ، ومكنية .

فالتصريحية : ما صُرَّح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه نحو " أسد " في قولك : " عندي أسد يرمي " فإن كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس غير مشتق سواء كان اسم ذات كأسد ، أم اسم معنى كالقتل للإذلال ، وسواء أكان اسم جنس حقيقة ، أم تأويلاً في الأعلام التي اشتهرت بنوع من الوصف كحاتم في قولك : " رأيت اليوم حاتماً " تريد رجلاً كامل الجود . إن كان شيء مما سبق كانت تصريحية أصلية وإن كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو حرفاً ذا معنى أو صفة مشتقة كانت تصريحية تبعية .

والمكنية : هي التي اختفى فيها لفظ المشبه به ، واكتفي بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه

وبقي المشبه كقول أبي ذؤيب الهذلي :

وإذا المنيــة أنشــبتْ أظــفارَها ألفيــتَ كُــلَّ تمَيمــةٍ لا تنَــفعْ

ففي البيت استعارة مكنية ، في لفظ " المنية " حيث شبه الشاعر المنية بالسبع ثم حذف السبع ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار والقرينة هي إثبات الأظفار للمنية .

---

(3) التصوير البياني ص 193

(4) للاستعارة باعتبار الطرفين أكثر من تقسيم : فتنقسم الاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها إلى تصريحية , ومكنية . وتنقسم باعتبار لفظها إلى أصلية , وتبعية . وتنقسم باعتبار الملائم إلى مرشحة , ومجردة , ومطلقة . وتنقسم من حيث الإفراد والتركيب إلى مفردة , ومركبة . وسأكتفي بالتقسيم الأول لحاجة البحث إليه . وكما سبق أن التقسيمات التي أذكرها والتعريفات التي أشير إليها مرتبطة بما يتطلبه البحث بعيداً عن التفصيلات والاختلافات الموجودة في كتب البلاغة , حيث إننا لسنا بصدد دراسة هذه الفنون من الناحية الاصطلاحية لأن ذلك قد فرغ منه قديماً وحديثاً , ولكن نأخذ من هذه المباحث الخطوط العريضة التي تتصل بما ذكره ابن عطاء في حكمه , وبما يتعلق بالتصوير عنده , ومن هنا جاءت الإشارة السريعة إلى بعض مباحث التشبيه , وبعض مباحث الاستعارة , وكذلك الكناية .

وقد يسمون الاستعارة بالكناية " التشبيه المضمر " لأن التشبيه يضمر في النفس ، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه ، ويدل على ذلك التشبيه المضمر في النفس بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به ، من غير أن يكون هناك أمر متحقق حساً أو عقلاً ، يطلق عليه اسم ذلك الأمر . فيسمى التشبيه المضمر في النفس"استعارة بالكناية " وسميت بذلك لأنه لم يُصرح به ، بل إنما دل عليه بذكر خواصه ولوازمه"([1]) . وإثبات اللازم في الاستعارة المكنية يسمى " استعارة تخيلية " وهي قرينة المكنية ، وسميت تخيلية لأن إثباته للمشبه خيَّل اتحاده مع المشبه به فذلك اللازم حقيقة أي مستعمل فيما وضع له . لظهور أن المراد بالأظفار في قولنا : " أظفار المنية نشبت بالأعداء " حقيقتها ، وإنما التجوز في إثباتها للمنية ، بمعنى أن ذلك الإثبات إثبات الشيء لغير ما هو له ، فليست التخيلية عند الجمهور من المجاز بمعنى الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له ، بل هي مجاز عقلي ، والمكنية والتخيلية متلازمتان عند جمهور البلاغيين فالمكنية قرينتها تخيلية "([2]) ([3]) .

والاستعارة تنقسم من حيث الإفراد والتركيب إلى مفردة , ومركبة . فالمفردة : ما كان اللفظ المستعار فيها لفظاً مفرداً كما هو الشأن في الاستعارة التصريحية والمكنية اللتين سبق الحديث عنهما .

أما المركبة : ما كان اللفظ المستعار فيها تركيباً , وهذا النوع من الاستعارة يطلق عليه البلاغيون اسم " الاستعارة التمثيلية " وهم يعرفونها بأنها " تركيب استعمل في غير ما وضع لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي " ومن أمثلتها من القرآن : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[الزمر : 67] ففي هذه الآية الكريمة تمثيلان : الأول : شبه الأرض وهي تحت تصرف المولى سبحانه ورهن إرادته بالشيء يكون في قبضة الممسك به , فهو متمكن منه يصرفه كيف شاء . والثاني : شبه السموات وهي تحت تصرفه وطوع مشيئته بالشيء المطوي (كالكتاب مثلاً) في يمين

---

(1) الإيضاح 132/3 ، 133 ، وعلم البيان صـ 186

(2) ينظر التصوير البياني للأستاذ الدكتور / محمد أبي موسى صـ 257 وما بعدها , وعلم البيان للأستاذ الدكتور / عبد العزيز عتيق صـ 188 ، 189

(3) هناك خلاف بين البلاغيين حول تحقيق معنى الاستعارة المكنية والتخيلية ليس هذا محل ذكره ، ويراجع تفصيل ذلك في المطول صـ381

منقاد لـه فهـو يطويـه وينشـره كلمـا شـاء , وخـص اليمـين لأنهـا أشـرف اليـدين وأقواهما ([1]) .

أما عن الكناية([2]) : فعرف الخطيب **الكناية** بأنها " لفظ أريد بـه لازم معنـاه مع جواز إرادة معناه حينئذ " كقولك : " فلان طويل النَّجاد " أي طويل القامـة ، و" فلانة نؤوم الضحى " أي مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات ... ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم في الضحى من غير تأويل " [(3)] . **وعن بلاغتها** يقول الإمام عبد القاهر : " قد أجمع الجميع على أن " الكناية " أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ..." [(4)] .

أقسامها : هناك تقسيمان مشهوران للكناية :

الأول : تقسيم باعتبـار المطلـوب بالكنايـة وهـي تتمثـل فـي أن المكنـي عنـه قد يكون صفة ، وقد يكون موصوفاً ، وقد يكون نسبة .

الثاني : تقسيم باعتبار الوسائط ، وقسمها السكاكي بهذا الاعتبار إلـى تعريض ، وتلويح ، ورمز، وإيماء ، وإشارة [(5)] .

التقسيم الأول :

1- الكنايـة المطلـوب بهـا صـفة : وهـي التـي يطلـب بهـا صـفة مـن الصـفات المعنوية وهي ضربان : قريبة ، وبعيدة، والقريبة تنقسم إلى واضحة , وخفية :

أ- فالقريبـة الواضـحة : مـا ينتقل منهـا إلـى المطلـوب بهـا لا بواسطة كقولهم : كنايـة عن طويـل القامـة : " طويـل نجـاده " " وطويـل النجـاد " . **ب- والقريبـة الخفيـة :** هـي التـي ينتقل فيهـا إلـى المطلـوب مـن أقـرب لوازمـه إليـه مـن غيـر واسطة مع تأمل وإعمال فكر وروية لخفاء التلازم بين المعنى الحقيقي والمعنـى

---

(1) ينظر البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم للأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح لاشين صـ 186، ط دار الفكر العربى (1420 هـ) ، (2000) م , وعلم البيان للأستذ الدكتور / عبد العزيز عتيق صـ 192

(2) للكناية عدة تعاريف منها : تعريف الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز صـ 66 ، وتعريف السكاكى في المفتاح صـ 219 ، وينظر تفصيل ذلك في بحث الأسلوب الكنائى نشأته وتطوره وبلاغته للأستاذ الدكتور / محمود شيخون صـ 5-36

(3) الإيضاح 3/ 150

(4) دلائل الإعجاز صـ 70

(5) ينظر المفتاح صـ 224

الكنائي . كقولهم كناية عن الأبله : " عريض القفا " فإن عرض القفا وعظم الرأس إذا أفرط – فيما يقال – دليل الغباوة .

ب- البعيدة : وهي التي يكون الانتقال فيها من المعنى الحقيقي إلى المعنى الكنائي بواسطة واحدة أو أكثر . كقولنا " كثير الرماد " فتنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ، ومن كثرة الجمر إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطبائخ ، ومن كثرة الطبائخ إلى كثرة الأكلة ، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيفان ، ثم من كثرة الضيفان إلى أنه جواد كريم " ([1]).

الكناية المطلوب بها موصوف : وهي التى يطلب بها نفس الموصوف **,** والشرط هنا أن تكون الكناية مختصة بالمكني عنه لا تتعداه ؛ وذلك ليحصل الانتقال منها إليه .

وهي ضربان : القريبة ، والبعيدة . أ- **القريبة :** وهي أن يتفق في صفة من الصفات من اختصاص بموصوف معين عارض فتذكرها متوصلاً بها إلى ذكر الموصوف . كقول الشاعر :

الضاربينَ بكلِ أبيضَ مخذمٍ والطاعنينَ مجامعَ الأضغانِ [(2)]

فقد كني بمجامع الأضغان عن القلب .

ب. البعيدة : وهي أن يتكلف المتكلم اختصاصها بأن يضم إلى لازم لازماً وآخر حتى يلفق مجموعاً وصفياً مانعاً من دخول كل ما عدا مقصوده . كأن يقول في الكناية عن الإنسان : " هو حي مستوي القامة ، عريض الأظفار " ([3]) فهذه المعاني : " حي مستوي القامة ، عريض الأظفار " مجتمعة تعتبر مختصة بالإنسان ، لا توجد فيما عداه ، فينتقل منها إليه " [(4)] .

---

(1) ينظر الإيضاح 154/3 ، وعلم البيان صـ 246

(2) البيت لعمرو بن معد يكرب . والمخذم : القاطع من السيوف ، والأضغان : جمع ضغن وهو الحقد . ينظر الإيضاح 151/3

(3) الإيضاح 152/3

(4) ينظر الأسلوب الكنائي نشأته وتطوره وبلاغته صـ74 ، 76

أما عن القسم الثالث من أقسام الكناية باعتبار المطلوب بها وهي" الكناية التي يتطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف ، وهي التي يسمونها **" كناية النسبة "** ، ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ومن شواهداها : قول زياد الأعجم : إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج [1] فإنه حين أراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها في قبة تنبيهاً بذلك على أن محلها ذو قبة ، وجعلها مضروبة عليه لوجود ذوي قباب في الدنيا كثيرين ، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية ، ونظيره قولهم : " المجد بين ثوبيه ، والكرم بين برديه " [2] .

(1) هناك تقسيم للكناية باعتبار الوسائط , وقد قسمها السكاكى بهذا الاعتبار إلى : تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإيماء ، وإشارة . ولقد نحا ابن الأثير في تقسيم الكناية باعتبار الوسائط نحواً آخر حيث بنى تقسيمه على الوسائط التي توصل إلى المطلوب من القرب والبعد والكثرة ، وجعلها ضربين : الأول : ما يحسن استعماله . والثاني : ما يقبح استعماله . وقسم الأول إلى أربعة أقسام : التمثيل ، والإرداف ، والمجاورة ، والكناية التي ليست تمثيلاً ولا إردافاً ولا مجاورة . ينظر المفتاح صـ220 باختصار ، والإيضاح 150/3 , والأسلوب الكنائي نشأته وتطوره صـ 81 ، 82 ، وعلم البيان صـ 248 –255

(2) الإيضاح 158/3

الفصل الثاني : التشبيه في حكم ابن عطاء

استخدم ابن عطاء " التشبيه " في مواضع كثيرةٍ من حِكَمِهِ نظراً لما للصورة التشبيهية من أثر فى إبراز المعنوي في صورة محسوسة مشاهدة , وقد أبدع وأجاد في اختيار أجزاء الصورة التشبيهية في حكمه ، كما أصاب في تركيبها وإبرازها في شكل معبر ومؤثر في النفس ، كما جاءت هذه الصورة منسجمة مع الواقع في حياة الناس ؛ لأنها جاءت لتعبر عما يدور في خلجات النفوس ، فالتصوير في حكم ابن عطاء بشكل عام إنما يشير إلى طبيعة النفس البشرية المؤمنة في كل مكان وزمان ، وما يعترض طريقها في السلوك إلى الله (عز وجل) ؛ ومن هنا فإن هذه الحكم قد حازت القبول والرضا من العلماء والسالكين والزاهدين إلى يومنا هذا .

ومن اللافت أن صور التشبيه في حكم ابن عطاء من التشبيه البليغ ، ومن التشبيه التمثيلي ، وهما من أبلغ أنواع صور التشبيه نظراً لما فيهما من المبالغة والتركيب في الصورة ، ولأن التمثيل له أثر في تحريك النفوس ([1])كما هو معلوم ، وقد ذكر الخطيب القزويني أن أن ترك كلمة التشبيه ووجهه [التشبيه البليغ] أقوى مراتب التشبيه ([2]).

فمن التشبيه البليغ : ما ذكره في الحكمة سبعٍ وثمانين ومائةٍ **حيث يقول : "** العِباراتُ قُوتٌ لِعائِلَةِ المُسْتَمِعِينَ , ولَيسَ لَكَ إلَّا مَا أَنتَ آكِلٌ **" . وفي هذه الحكمة الرائعة اتجه الشيخ إلى استعمال " التشبيه البليغ "([3]) محذوف الوجه والأداة , حيث أراد أن يبين أن السالكين إلى الله (عز وجل) يتفاوتون في المنازل والمقامات , وفي الفهم والإدراك للعلوم والمعارف . فكما أن قوت الأطفال وأكلهم غير أكل الكبار فكذلك أفهام الناس وإدراكهم للعلوم والمعارف يتفاوت حسب منازلهم , ودرجاتهم , واستعدادهم . وكما أن الآكل لا يستطيع أن يأكل إلا ما يناسبه ويناسب طبيعته واستعداده فكذلك السالك يأخذ من العلوم والمعارف على قدر فكره واستعداده .**

---

(1) الإيضاح 7/3

(2) الإيضاح 70/3

(3) وتسميته بالتشبيه البليغ مأخوذ من البلاغة بمعنى اللطف والحسن لا من البلاغة بمعنى المطابقة لمقتضى الحال ؛ لأن التشبيه لا يتفاوت هذا التفاوت من هذه الناحية . وقيل : المراد بـ " البليغ " هنا ما بلغ القبول من القلوب . ينظر عروس الأفراح للسبكي 459/3 , ط دار السرور ، بدون تاريخ ، وبغية الإيضاح 63/3

وما أروع تشبيهه للعبارات بـ " **القوت للعائلة** " ! فالعائل : هو الفقير , والعائلة جمع له . وعبارات العارفين قوت لقلوب وفقراء الطالبين , وكما أن الآكل يأكل على قدر استعداده حتى يشبع بما يناسبه , فكذلك السالك يأخذ من عبارات العارف بما يتناسب مع فهمه واستعداده . فأكل الصغير لا يشبع الكبير , وأكل الكبير فوق طاقة الصغير , وكذلك كل سالك يأخذ بقدر علمه , وكما أن الصغير إذا أكل أكل الكبير غص في حلقه ووقف , وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبع كذلك بعض العبارات قد تكون فتنة على بعض من لم يفهمها , أو يكون المقام فوق إمكانه واستعداده , فيكون ذلك وبالاً عليه بدلاً من أن يكون منفعة له . وهذا التشبيه من وجوه جماله : الارتباط بين حال الجائع الفقير المحتاج , وحال السالك الطالب للهدى والرشاد . فكل منهما محتاج , هذا إلى قوت روحه وفكره وعقله وقلبه , وهذا إلى قوت بدنه وجسده . والتعبير بـ " **القوت** " هنا أيضا تعبير دقيق حيث يشير إلى شدة العوز والحاجة والفاقة . وفي هذا التشبيه بين الشيخ أثر العلم وأقوال العلماء ومواعظهم في السالكين , وتشبيه ذلك بحاجة الجائعين إلى الطعام , فكما أن الطعام قوام الأبدان , فالعلوم والمعارف قوام الأرواح . وفي هذا أدق بيان لأهمية العلم , ومراعاة أحوال طلابه , واختلاف قدراتهم واستعدادهم للتلقي . فالعلوم والمعارف هي الغذاء الروحى الحقيقي لأهل العلم , والجهل موت معنوي .

ورحم الله من قال :

فَقــمْ بِعلــمٍ ولا تَطْلُــبْ بِــهِ بَــدلاً فالنّــاسُ مَـوْتَى وأَهـلُ العِلـمِ أَحيَـاءُ [1]

ورحم الله الإمام أحمد (رحمه الله) حين قال : " الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين , والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس , وقد قال تعالى : ﴿ **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد : 17] [2] . وتأمل في هذه الإضافة التي جاءت في المشبه به في قوله : " **قُوتٌ لِعائِلةِ المُسْتَمِعِينَ** " فهذه الإضافة للبيان , أي هي من حيث

---

(1) هكذا البيت في رواية ديوان الإمام علي بن أبي طالب صـ 7 ، ط أولى ، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم ، (1409) هـ (1988) م .

(2) ينظر مفتاح دار السعادة لابن القيم 98/1 ، ط المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ .

معناها قوت لأرواح العائلة وهم المستمعون المحتاجون إلى ما يلقى إليهم من المواعظ والحكم , كما أن الطعمة الحسية قوت لأبدان المحتاجين , وكما أن الأقوات الحسية مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم , كذلك الأقوات المعنوية التي تفهم من العبارات مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم , فقد تلقى العبارة على جماعة فيفهم كل واحد منها ما لا يفهمه الأخر , وقد يفهم بعضهم من الكلام الذي يسمعه معنى لا يقصده المتكلم , ويتأثر باطنه بذلك تأثراً عجيباً , وربما فهم منه ضد ما قصده المتكلم به " ([1]) . وهو ما عبر عنه الشيخ بقوله : **" وليسَ لَكَ إلَّا مَا أَنتَ آكلٌ "** وهذه الصورة التشبيهية الدقيقة قد صورت هذا المعنى أدق تصوير , ونقلته من المعقول إلى المحسوس في أحسن معرض , وأوضح بيان ، ونبهت على قيمة المواعظ وأهميتها في حياة السالك ، فلله در الشيخ !

ومن روائع التصوير ما ذكره في الحكمة مائتين وخمسٍ وأربعين حيث يقول : **" جَعَلَكَ فِي العَالَمِ المُتَوَسِّطِ بَينَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلالَةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ , وأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ "** . في هذه الحكمة يشير الشيخ إلى ما منحه الحق سبحانه للإنسان من ميزة تميز بها من سائر المخلوقات علويها وسفلها , فلقد كرمه الله , وسخر له الأرض بما فيها , وجعله خليفة ليقوم بعبادته وفق ما أمر , ولأجل هذا التكريم والتخصيص فضله بطبيعة مختلفة , وميزه بميزة يخالف بها سائر المخلوقات , فجعله بين عالم الُملك وهو عالم الشهادة والحِسّ , وعالم الملكوت وهو عالم الغيب . وركب فيه بعض الخصائص من العالم الأول , وبعض الخصائص من العالم الثاني , ففيه من عالم الملك والحس الطبيعة البشرية الجثمانية , وما يدخل تحتها من شهوات الدنيا , وفيه من العالم الثاني الطبيعة الملائكية وما يدخل تحتها من رقي الروح وتجردها لله (عز وجل) . ففيه ما ليس في الملائكة من عالم الملك , وفيه ما ليس في سائر المخلوقات من عالم الملكوت . وقد يرقى في عالم الملكوت فيكون أفضل من بعض الملائكة , وقد يهبط وينحدر في عالم الملك فتكون بعض المخلوقات الأخرى أفضل منه حين ينغمس في الشهوات والأهواء الدنيا .

(3) ينظر شرح الشرقاوي على الحكم 20/2

" فالإنسان بما سبق نسخة من العوالم فيه من صفات الملائكة : العقل والمعرفة والعبادة, ومن صفات الشياطين : الإغواء والتمرد والطغيان , ومن صفات الحيوانات : أنه في حالة الغضب يكون أسداً , وفي حال غلبة الشهوة يكون خنزيراً لا يبالي أين يُلْقِي نفسه , وفي حالة الحرص على الدنيا والشره كلباً , وفي الاحتيال والخداع يكون ذئباً , ومن صفات النبات والأشجار : أنه يكون في مبدئه غصناً طرياً مترعرعاً , وفي آخره يابساً أسوداً , ومن صفات السماء : أنه محل الأسرار والأنوار , ومجمع الملائكة , ومن صفات الأرض : أنه محل لنبات الأخلاق والطباع , ومنه اللين والخشن ... " (1) . فالإنسان بما سبق من تسخير الكون له , وكونه على هذه الطبيعة مستخلف ومختار , وقد جعله الله على هذه الطبيعة ليعلمه **" جَلَالَة قَدْرِهِ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ "** , وقد مهد الشيخ بهذه العبارة الدقيقة الموجزة للصورة التالية في قوله : **" وأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ "**

والصورة هنا من التشبيه البليغ (2) كما في الصورة الماضية ، وقد راعى فيها الشيخ الدقة في اختيار أجزاء الصورة المعبرة عن المعنى المقصود أدق تعبير ." فالجوهرة : من جوهر الشيء : أي حقيقته وذاته . ومن الأحجار كل ما يستخرج منه شيء ينتفع به والنفيس الذي تتخذ منه الفصوص ونحوها(3) . وتشبيه الإنسان هنا بـ " الجوهرة " مما يتناسب مع الصورة المقصودة تمام المناسبة ؛ لأن الإنسان من تكريم الله واستخلافه له بالمحل المعروف , وفي ذلك من الخصوصية والنفاسة ما فيه ... , وكذلك كل ما في الكون مسخر له , وهو باستخلاف الله – عز وجل - له معمر ومصلح في الأرض نافع لنفسه ولغيره .

---

(1) ينظر شرح النفزي الرندي على الحكم 72/2 ، ط مصطفى البابي الحلبي ، ط الأخيرة ، (1358) هـ - (1939) م .

(1) والتشبيه البليغ من أعلى مراتب التشبيه في البلاغة وقوة المبالغة لما فيه من ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به , ولما فيه من الإيجاز الناشئ عن حذف الأداة والوجه معاً . هذا الإيجاز الذي يجعل نفس السامع تذهب كل مذهب , ويوحي لها بصور شتى من وجوه التشبيه . والتشبيه البليغ هو أقوى مراتب التشبيه كما قرر صاحب الإيضاح . ينظر الإيضاح 70/3 , وعلم البيان ص 105 للدكتور / عبد العزيز عتيق .

(2) فكل حجر يستخرج منه شئ ينتفع به فهو جوهر . والجسم والجوهر بمعنى . والجوهر : هو الذات والماهية , والحقيقة كلها ألفاظ مترادفة . ينظر الكليات ص 330 , 345 , 346 , ط مؤسسة الرسالة ، ط أولى ، (1412) هـ (1992) م ، والمعجم الوسيط 149/1

والجوهرة المشبه بها مما يتناسب مع ذلك , ويتفق مع الإنسان في الصفة , فالجوهرة يستخرج منها ما ينتفع به من الأشياء النفيسة فضلاً عن ذلك ما فيها من البريق وحسن المنظر , وكذلك الإنسان كرمه الله , وصوره فأحسن صورته , وخلقه فى أحسن تقويم , وهذا أيضاً مما هو مشترك بينه وبين الجوهرة ، كما أن الإنسان الصالح يخرج منه الخير والطاعة والبر فينتفع بذلك وينفع غيره من الناس ، فيكون بذلك مشتركاً مع الجوهرة في المنفعة ، بل أفضل منها ، فالجوهرة نافعة لغيرها ولا منفعة لها في نفسها ، والإنسان الصالح نافع لنفسه ولغيره . ولكن يبقى بعد ذلك الجانب الآخر من الصورة في قوله :" **تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ** " وهي هنا متممة للصورة , فلما كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانيات منها والروحانيات كانت الأكوان كلها باعتبار إحاطتها وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذي يحفظ الشيء ويصونه , وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التي تحويها الصدفة . " فأنت أيها الإنسان كالياقوتة في صدف . الأرض تقلك , والسماء تظلك , والجهات تكتنفك , والحيوانات تخدمك وتنفعك , والجمادات تدفع عنك , وأنت في وسط الجميع , فالأفلاك دائرة بك , والشمس والقمر منيران لما أنت فيه , فأنت جوهرة الصدف , ولباب الكون مداره عليك " ([1]) .

فالصورة التشبيهية ملائمة تمام الملاءمة لحال الإنسان الذي كرمه الله (عز وجل) واستخلف واختصه بهذه النعم المسخرة المذللة. والتشبيه هنا بما فيه من حذف الوجه والأداة , وتقديم أداة التأكيد,ودخولها على ضمير المشبه " **أنك** " قد صور أن هذا الإنسان جوهرة على الحقيقة , وزاد هذه الصورة بهاءً بأن ذكر " **الأصداف** " جمع صدفة مع إضافتها إلى المكونات , فاكتملت بذلك معالم الصورة . والتشبيه هنا من التشبيه الغريب البعيد , وليس المقصود هنا من البعد والغرابة عدم الظهور لأجل التعقيد ([2]) بل المقصود هنا لطف المعنى ودقته . "

---

(1) ينظر شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 413 , 414 ، ط المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ .

(2) لأن التعقيد له سببان : الأول : سوء ترتيب الألفاظ . والثاني : الاختلال في الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو المراد من اللفظ . فالخفاء وعدم الظهور تارة ينشأ عن لطف المعنى ودقته , وهذا محقق للبلاغة , وهو المراد هنا , وتارة ينشأ عن سوء ترتيب الألفاظ وعن اختلال الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى , وهذا هو المحقق للتعقيد المخل بالفصاحة . ينظر الإيضاح 64/3 , وحاشية الدسوقي على مختصر السعد 459/3 ، ط دار السرور ، بدون تاريخ .

والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع , أي البعيد لغرابته , ولأن الشئ إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى , وموقعه من النفس ألطف , وبالمسرة أولى " (1) .

" فالغرابة موجبة للبلاغة , فكل ما كان غريباً كان بليغاً , إذ لا يخفى أن المعاني الغريبة أحسن وأبلغ من المعانى المبتذلة "(2) ولذلك يقال : " الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب " (3) .

التشبيه التمثيلي : كما كانت للشيخ ابن عطاء عناية بالصورة التشبيهية العامة في حكمه كانت له أيضاً عناية بالناحية التمثيلية من التشبيه , وهي أدق من ناحية البلاغة , وأعلى في المنزلة ؛ لأن التمثيل ضرب من التشبيه , " فالتشبيه عام والتمثيل أخص منه , فكل تمثيل تشبيه , وليس كل تشبيه تمثيلاً "(4) كما ذكر الشيخ عبد القاهر. والتشبيه التمثيلي بما فيه من تركيب الصورة أكثر بلاغة , وأعمق أثراً في النفس , وأجلى للصورة , وأدق في الإيضاح وأقوى في إثبات المعنى وترسيخه في الذهن . ولقد أشار الإمام عبد القاهر وغيره إلى أسباب قوة تأثير التمثيل , ومن ذلك ما ذكره فى كتابه أسرار البلاغة (5) وهذا – فيما يبدو لي - ما دعا الشيخ ابن عطاء أن يتجه في بعض حكمه إلى استخدام التشبيه التمثيلى .

---

(3) الإيضاح 63/3 .
(4) حاشية الدسوقي على مختصر السعد 458/3 .
(5) عروس الأفراح 458/3 .
(1) أسرار البلاغة صـ 75 .
(2) فمن أظهر الأسباب : " أن في كثير من التمثيل انتقالاً بالنفس من المعقول إلى المحسوس , وبما يدرك بالفكر والنظر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع وذلك يوجب لها أنساً بالمعنى وثقة به , واطمئناناً إليه ... وكثيراً ما يجمع التمثيل بين أمرين متنافرين مختلفين فتصيد الشبه للشيء من غير جنسه , واجتلابه من غير مظنته , والتقاطه من المكان القصي حتى ترى به الأمرين مثلين متباينين , ومؤتلفين مختلفين , وهو باب آخر من الظرف واللطف , ومذهب من مذاهب الإبداع والافتنان , وفيه من الطرافة والغرابة ما لا يخفى موضعه من العقل , وما يدعو لا محالة للاستحسان , ويثير كامن الارتياح ويتألف نافر المسرة ... , كما أن التمثيل يحتاج إلى إعمال الفكر , وتحريك الخاطر , وبذل الهمة من منشئه وسامعه , فالأول محتاج إلى ذلك في الغوص عليه , والاهتداء إليه , ثم في صوغه والإبانة عنه , والثانى يحتاج إلى ذلك في فهمه , وإدراك سره , واجتلاء حسنه , وذلك ما يجعله في النفس أحلى , وبالميزة أولى ..." ينظر للاستزادة أسرار البلاغة صـ 121 وما بعدها ، والإيضاح 9/3- 12, و

فمن ذلك ما ذكره في الحكمة الثانية والأربعين حيث يقول : **" لا تَرْحلْ مِنْ كَوْنٍ إلى كَوْنٍ فَتكونُ كَحِمارِ الرَّحَى يَسيرُ والمَكانُ الَّذِى ارتَحَلَ إلَيهِ هُوَ الَّذِي ارتَحلَ مِنْهُ , ولَكنْ اِرْحَلْ مِنْ الأَكْوَانِ إلى المُكَوِّنِ ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾** [النجم : 42]. **وانظر قوله صلى الله عليه وسلم : " ... فَمَنْ كَانتْ هِجرَتُهُ إلى اللهِ ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسُوْلِهِ , ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصيبُها , أَو امْرَأةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيهِ "** (1) **فَافْهَمْ قَوْلَهَ عَلَيْهِ الصَلاةُ والسَّلامُ – وتَأَمَّلْ هَذَا الأَمْرَ إنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ... والسَّلامُ "** .

والشيخ في هذه الحكمة الرائعة ناظر إلى المثل القرآنى في قوله تعالى : **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾** [الجمعة : 5] فالمثل القرآني هنا لليهود في حملهم للتوراة , وقراءتهم , وحفظهم لما فيها , ثم إنهم غير عاملين بها , ولا منتفعين بآياتها , مثلهم كالحمار يحمل أسفاراً , أي كتباً كباراً من كتب العلم , فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب . وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله , وبئس المثل مثلاً **﴿ ... مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾** (2) . فأخذ الشيخ من هذا التمثيل القرآني المشبه به , وهو " الحمار " وحده دون سائر الصورة المركبة في المشبه به من حمله كتب العلم الكبيرة النافعة , مع عدم علمه وعمله بما فيها ، أخذ الشيخ ما سبق , ووظف الصورة توظيفاً آخر بتركيب آخر وفُق فيه كل التوفيق فيما يبدو لي . وجاء تصويره نابعاً من البيئة , واضحاً كل الوضوح , ومبيناً للمقصود أتم بيان .

فالشيخ في هذه الحكمة يشير إلى من يعمل على غير إخلاص في توجهه إلى الله (عز وجل) وهو من يعمل ليراه الناس , أو لأجل طلب المنزلة عندهم , أو يزهد في الدنيا ليعرف بذلك , وتعلو منزلته , وينتشر ذكره بين الناس ,

---

دراسة تفصيلية لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير للأستاذ / عبد الهادي العدل صـ 81- 115، ط دار الطباعة المحمدية ، ط ثالثة ، (1378) هـ (1958) م .

(3) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب , وأوله " إنما الأعمال بالنيات , وإنما لامريء ما نوى ... " الحديث وراجع تخريجه , والتعليق عليه في مشكاة المصابيح بشرح الطيبى ح (1) 74/1 ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، (1422) هـ (2001) م

(1) ينظر الكشاف 531/4, وأسرار البلاغة ص 81 , وما بعدها , والجمان في تشبيهات القرآن ص 385 , 386 .

فهو عامل على طلب الجزاء من الخلق , أو نيل المنزلة عندهم , وكل هذا وغيره قادح في إخلاص العمل لله (عز وجل) . وهذا ما قصده الشيخ بـ " **الرَّحِيلِ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ ...** " فهو هنا قد رحل من حظ نفسه إلى حظ آخر من حظوظ النفس , رحل من حظ النفس بالعبادة والطاعة , ولكن لم يرحل إلى الله (عز وجل) , وإنما رحل لحظ آخر من حظوظ النفس , وهو طلب الذكر والشرف عند الناس , فرحيله بذلك من " كون إلى كون " , وعودته إلى المكان الذي بدأ منه , ومن هنا مثَّل له بـ " حمار الرحى " الذي يسير بالليل والنهار , وهو في موضعه الذي ارتحل منه .

فالصورة بتركيبها كالتالي : شبه حال من يخرج من حظوظ نفسه , ويعمل لأجل أن يراه الناس أو لأجل حظ من حظوظ الدنيا الفانية بحال الحمار الذي علق في الطاحونة " **الرحى** " وهو يسير سيراً دائماً , وهو في موضعه قائم , والمكان الذي انتقل عنه هو المكان الذي رجع إليه . فكل منهما قد أتعب نفسه بغير فائدة مع نقصان حاله , وفساد أمره , وعدم انتفاعه بعمله . والتشبيه بـ " الحمار " هنا دليل على البلادة , وقلة الفهم , والتمثيل به مع إضافته إلى الرحى " **حمار الرحى** " مبالغة في تقبيح حال العاملين لأجل رؤية الناس , أو لحظ من حظوظ الدنيا الفانية . فهذا الصنف من الناس لو فهم عن الله (عز وجل) لرحل عن حظوظ نفسه وهواه قاصداً إلى الوصول إلى حضرة مولاه .

وتأمل هنا في التعبير عن التوجه إلى الله بـ " **الرحيل** " , وكيف ربط الشيخ بين أجزاء هذه الصورة الرائعة وبين الآية التي اقتبسها من سورة " النجم " : ﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** ﴾ ثم ما نقله بعد ذلك من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الهجرة إلى الله ورسوله . كل ذلك أفرغه الشيخ في الصورة إفراغاً واحداً أكمل معالم الصورة , وربط بين أجزائها ربطاً محكماً بحيث صار كل جزء من الصورة مكملاً للغرض .

فالتعبير بـ " **الرحيل** " هنا تعبير دقيق ؛ لأن المؤمن سالك إلى الله (عز وجل) راحل عن الدنيا وتارك لها , فحاله مع الدنيا كحال المسافر الذي سينتقل عما قريب من المكان الذي أقام فيه , فلا ثبات له ولا قرار ؛ لأن الدنيا وحظوظها مرحلة من مراحل الطريق في السير إلى الله (عز وجل) , وعلى المؤمن أن يجتازها ويتخطاها في سيره إلى الحق سبحانه , فلا تكن هدفاً في

ذاتها ([1]) .كما أن التعبير بـ " **الرحيل** " فيه إشارة إلى المشقة التي تعترض طريق السالك إلى الله , وأن هناك عقبات في طريق المخلصين من حظوظ النفس , والدنيا , والناس , ... وعليهم أن يجتازوها ويتجاوزوها ؛ لأن المسافر المخلص لله سيجد في النهاية بغيته من سفره بعد المشقة والتعب , وكذلك السائر إلى الله سيصل إلى حبه ورضوانه ﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى** ﴾ . ومن هنا اقتبس الآية في آخر الصورة إكمالاً لمعالمها , ولبيان أن السائر إلى الله المخلص له واصل لا محالة إلى رضوانه وحبه . فالرحيل من الكون إلى الله (عز وجل) لأجل السلامة في السفر لا الرحيل من مكان في الدنيا إلى مكان آخر بدون هدف أو غاية يروم الوصول إليها ؛ لأن الرحيل هنا من كون إلى كون وفي ذلك اعتبار لحظوظ النفس ؛ لأن الأكوان كلها متساوية .

واقتبس الشيخ هنا أيضاً من حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) في إخلاص النية من أول قوله : " **... فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ ورَسُوْلِهِ ...** " وهو معنى الارتحال من الأكوان إلى ألمكَوّنِ , وهو المطلوب من العبد , وهو مصرح به غاية التصريح , وقوله : " **... فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِليهِ** " هُوَ البقاء مع الأكوان , والتنقل فيها , وهو الذي نهى عنه , وهو مشار به غير مصرح ([2]) " . فمن قصد بهجرته وجه الله (عز وجل) وقع أجره على الله , ومن قصد بها دنيا أو امراة فهي حظه ولا نصيب له في الآخرة "([3]) .

ومن اللافت في هذه الصورة الرائعة أن الشيخ قد ختمها بالسلام , وكما يقول ابن عجيبة : " ختم هذا الباب بالسلام لما اشتملت عليه من الرحيل والمقام , فكلها تدل على سفر القلب من شهود الخلق إلى شهود الحق , فناسب ختمها

---

(1) ولقد جاءت هذه الصورة في أكثر من حديث ... من ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " الحديث رواه أحمد والبخاري وابن ماجة من حديث ابن عمر . فشبه الناسك السالك أولاً بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه , ولا سكن يسليه , ثم ترقى وأضرب عنه بقوله : " أو عابر سبيل " لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربة ويقيم فيها بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد الشاسع وبينه وبينها أودية مردية , ومفاوز مهلكة , وهو بمرصد من قطاع طريقه , فهل له أن يقيم لحظة , أو يسكن لمحة ؟ لا . كذلك في حديث : " ما لي والدنيا ؟ وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها " الحديث رواه أحمد والترمذي وابن ماجة من حديث ابن مسعود . وهذا الحديث من التشبيه التمثيلي , ووجه الشبه : سرعة الوصول , وقلة المكث ؛ ومن ثم خص الراكب . ينظر المشكاة ح (1604) , ح (5188) , وشرح الطيبي على المشكاة 341/3 , 351/9

(1) شرح النفزي على الحكم 38/1

(2) شرح الطيبي على المشكاة 75/1

بالسلام لما فيه من ذكر السلامة "([1]) . والشيخ هنا حريص على دقة التركيب , وحسن الترتيب في أجزاء الصورة , وكلاهما من الأهمية والبلاغة بمكان كبير , كما نبه على ذلك علماء البيان عند الحديث عن التشبيه المركب , والفرق بينه وبين المتعدد , وهل يجوز فض التركيب في الأول وجعله متعدداً ؟ إلخ . " وعلماء البيان أشد حرصاً على اعتبار تشبيه الهيئة فلا يعدلون عنه مهما استقام اعتباره , فهو أوقع في النفوس , وأجلى للمعاني "([2]) .

وابن عطاء قد سار على هذا النهج مراعياً الهيئة والتركيب في هذه الصورة التمثيلية الرائعة .

ومن ذلك ما ذكره في الحكمة أربعٍ وخمسين ومائةٍ حيث يقول : " **ربما وقفتْ القُلوبُ معَ الأَنْوَارِ , كَما حُجِبَتْ النُّفُوسُ بِكَثَائفِ الأَغْيَارِ** " . وهذه الصورة التشبيهية يهدف الشيخ من ورائها إلى بيان أن السالكين إلى الله (عز وجل) يعترضهم في طريق سلوكهم عقبات وصعاب منها ما هو ظاهر جلي , ومنها ما هو دقيق خفي , وهذه العقبات والصعاب إنما تعترض طريق القلب لأنه أساس الصلاح والتوجه إلى الله (عز وجل) , وذلك لتمنعه من الوصول إلى مرضاة رب العالمين , ولقد عبر عن هذه المقامات التي تقف القلوب عندها بـ " **الأنوار** " وهو تعبير دقيق حيث إنه يقصد بـ " **الأنوار** " التي تقف القلوب عندها العلوم , والمعارف , والمقامات التي تنكشف للسائرين إلى الله (عز وجل) في طريقهم .

فقد تتحول هذه الأنوار إلى غاية في ذاتها بدلاً من أن تكون وسيلة إلى غاية أكبر , وهي **الوصول إلى رضوان الله** , أو يقف القلب والعقل عندها دون أن يتطلع العبد إلى المقامات الأسمى والأعلى . ومن هنا تتحول هذه المقامات , والعلوم , والمعارف إلى حجاب من الحجب يمنع السالك من الوصول بدلاً من أن تكون زاداً يساعده على الوصول . والتعبير بـ " **الأنوار** " هنا مما يناسب الصورة التشبيهية تمام المناسبة ، وينسجم معها تمام الانسجام ؛ لأنه قد جرت العادة أن يشبه " الهدى والعلم والصلاح " بـ" **النور** " , وأن يشبه " الضلال , والجهل , والفساد" بـ " **الظلمات** " , وذلك ما جرى عليه التصوير القرآني في

---

(3) شرح ابن عجيبة على الحكم ص 111

(4) ينظر التحرير والتنوير 242/1 – 244 ، ط دار سحنون ، تونس (1997) م .

مواضع كثيرةٍ ([1]) . فلما كانت هذه العلوم والمعارف مبينة للحق كاشفة له شبهت بـ " النور " الذي يضئ الطريق للسالك فيسير على هدى دون أن تعثر قدمه أو تزل .

ولقد شبه الشيخ هذه الحجب النورانية بـ " حجب النفوس بالأغيار " التي يقصد بها هنا ما ظهر من بهجة الدنيا وزخرفها وغرورها , وهي التي أشار إليها الحق (عز وجل) في كتابه العزيز بقوله : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [آل عمران : 14] . ويدخل فيها ما يلائمها من حب الجاه , والرياسة , وحب المدح , والتعظيم , وغير ذلك من شهواتها وعوائدها وهي التي حجبت جل الناس وساقتهم إلى الخيبة والإفلاس .

والتشبيه هنا تشبيه دقيق مبرز لأثر هذه الأنوار في حجب القلوب ؛ لأن المشبه به مشارك للمشبه في الحجب عن الله تعالى ، لكن حجب النفس بالأغيار أشد ؛ لأنها ظلمة أشد حجاباً من النور , فالقلوب نورانية حجبت بالنور , والنفوس ظلمانية حجبت بالظلمة . ومعلوم كيف تؤثر هذه الأغيار فى نفوس الناس فتصرفهم عن طريق الهدى والرشاد فيركبون متن عمياء , ويخبطون خبط عشواء , ولكن الشيخ فى هذا التشبيه احترس بـ " **ربما** " لأن هذه النتيجة ليست قاطعة , فربما انطلقت القلوب وتجاوزت هذه الأنوار كما لم تحجب

---

(1) ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : 1] وفي ذلك يقول الرماني : " كل ما جاء في القرآن من ذكر " من الظلمات إلى النور " فهو مستعار , وحقيقته من الجهل إلى العلم " اهـ . وهو ما أشار إليه أيضاً الشريف الرضي وهو بصدد بيان المجاز في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 257] حيث يقول : " وهذه استعارة , والمراد بها إخراج المؤمنين من الكفر إلى الإيمان , ومن الغي إلى الرشاد , ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم . وكل ما في القرآن من ذكر الإخراج من " الظلمات إلى النور " فالمراد به ما ذكرنا , وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد , والإيمان كالنور الذي يؤمه الحائر ؛ لأن عاقبة الإيمان مضيئة بالإيمان والثواب , وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب . وفي لسانهم وصف الجهل بالعمى والعمه , ووصف العلم بالبصر والجلية . ينظر النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن صـ 92 , وتلخيص البيان فى مجازات القرآن ص 121 , و الكشاف 332/1

النفوس بكثائف الاغيار , وهذا هو عكس لصورة التشبيه التي ذكرها الشيخ . ومن جمال التشبيه في هذه الحكمة : التعبير بـ **" كثائف الأغيار "** في المشبه به , فالكثافة تفيد " الغلظة والكثرة في الشيء مع الالتفاف والتراكب " ([1]) وهو ما يناسب هذه الشهوات الحسية على اختلافها وتنوعها , كما أن وصفها بالكثافة " لأنها لا تزول إلا بمعاناة ومشقة " ([2]) . ونلمح هنا أن الشيخ قد اقتبس في هذه الصورة التشبيهية من نور القرآن الكريم ، وذلك فيما يتعلق بذكر " الأنوار " ، فلقد جرى على عادة القرآن من تشبيه " الهدى والفلاح بالنور " وذلك مما أكسب هذه الحكمة دقةً وجمالاً ، وهو تأكيد لما سبق بيانه في المقدمة من أن حكم الشيخ في حقيقتها ومنبعها قبس من هدي القرآن وأسلوبه .

ومن روائع التشبيه التمثيلي : قوله في الحكمة تسع وأربعين ومائتين : **" لَا يَلْزَمْ مِنْ ثُبُوتِ الخُصُوصيةِ عَدمُ وَصْفِ البَشَرِيَّة , إِنَّمَا مَثَلُ الخُصُوصِيةِ كإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهارِ ظَهَرَتْ فَي الأُفُقِ وليستْ مِنْهُ . تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ , وتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدَّكَ إِلَى حُدُودِكَ , فَالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ , ولَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ "** .

وكلام الشيخ هنا فيه تصوير للأمور المعنوية والعقلية في صورة حسية . والتمثيل هنا مما يناسب المعنى تمام المناسبة . فهو هنا يريد أن يبين أن الأوصاف البشرية التي هي من طبيعة الإنسان كالأكل والشرب , وما يحتاج إليه من لباس , ومسكن , وما فطره الله (عز وجل) عليه من حب للشهوات المباحة كالنكاح , ونحوه ... , هذه الأوصاف البشرية الملازمة للعبد لزوماً ذاتياً , والتي لا تنفك عنه ويستحيل انعدامها منه لا تتعارض مع الخصوصية والقرب من الله سبحانه , والإقبال عليه , كما لا تتعارض مع منصب الولاية ؛ لأن أهل الولاية , والقرب من الله تنقلب أوصافهم البشرية , وحظوظهم إلى كونها حقوقاً في تعاملهم مع الله بخلاف غيرهم ممن غلبت عليهم أنفسهم . وهذه الخصوصية محلها البواطن , ووصف البشرية محله الظواهر ؛ ولذلك اختفت الأولياء , والأنبياء , والرسل عن الناس لظهور أوصاف البشرية عليهم ... , وما وقع الإنكار على الأنبياء , والأولياء إلا لاعتقاد الناس أن أوصاف البشرية

---

(1) المعجم الوسيط صـ 777

(2) ينظر شرح الشرقاوي على الحكم 112/1 , ط مصطفى البابي الحلبي ، ط الأخيرة ، (1358) هـ - (1939) م ،وكشف الغطاء شرح وترتيب حكم ابن عطاء للخطيب صـ 96، ط مطبعة الشعراوي بطنطا ، بدون تاريخ .

تنافي الخصوصية ([1]) ، ولكن حين تصفو البواطن , وتتجرد لله (عز وجل) تتحول من النزعة البشرية إلى النزعة الروحية التي تظهر آثارها على الجوارح في الطاعة , والعبادة , والتجرد لله (عز وجل) .

وهذه الخصوصية , والصفاء الباطني لا تظهر آثارهما في كل الأحوال على السالكين إلى الله ؛ حيث إنهما ليسا من ذاتية الطباع البشرية , بل هما طارئان عليها يظهران في بعض الأحيان , ويختفيان في بعض الأحيان ؛ لأنهما ليس من طبيعة النفس , بل هما خارجان عنها . وهذا هو مضمون الصورة السابقة .

أما تركيب الصورة فيدل على ذوق الشيخ , ورهافة حسه , ودقة فهمه , وإدراكه لأسرار البيان . فهو هنا يشبه هذه الخصوصية والمنزلة التي تكون للسالكين إلى الله (عز وجل) يشبهها بشروق الشمس في النهار .

ويشبه هذه النفس البشرية بالأفق الذي يتعاقب عليه الليل والنهار . فأوصاف النفس كالليل المظلم , وهذه الأنوار التي يمنحها الله للسالكين كالنهار المشرق . وهذا الإشراق ليس من الفضاء , بل هو طاريء عليه , وهو قبل ظهور الشمس فيه مظلم . فما أروع هذه الصورة التي فككت تركيبها ! وهي بتركيبها كالتالي: حيث مثل لنور الربوبية الذي أشرقه الله في قلوب أوليائه , وستره بظهور البشرية بنور الشمس إذا أشرقت على الآفاق , وهو الفضاء الذي بين السماء والأرض .

فالفضاء قبل ظهور الشمس مظلم لا نور فيه , فإذا أشرقت عليه الشمس رجع نوراً صافياً , فنورانيته ليست من ذاته وإنما هي من الشمس , كذلك نور الربوبية هو مستودع في باطن البشرية , فإذا أراد الله أن يظهر خصوصية عبده أشرق ذلك النور على ظاهر بشريته " **... فيكون الله سمعه الذي يسمع به , وبصره الذي يبصر به ...**"([2]) . فنور البشرية ليس منها , ولكنه وارد

---

(1) فقد قال المشركون فى حقه صلى الله عليه وسلم كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : 7] فرد الله عليهم بعدم تنافيهما فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38].

(1) جزء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة , وأوله : " إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب , وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه , ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه , فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به , وبصره الذي يبصر به , ويده التي يبطش بها , ورجله التي يمشي بها , ولئن

عليها من حيث روحانيتها , كما أن نور الأفق ليس من ذات الأفق ولكنه وارد عليه من إشراق شمس النهار عليه .

وما أروع التركيب في هذه الصورة الدقيقة , مع سلاسة ألفاظها , وحسن اختيارها ! فالتمثيل للهداية والقرب من الله (عز وجل) وتوفيقه للعبد بشروق الشمس , أو بالنهار , أو بالنور , كل ذلك واقع في موقعه , ومعبر أدق تعبير عن المقصود , فلقد شاع كما سبق التمثيل للهدى والصلاح بالنور لما بينهما من المناسبة والتوافق , فكما أن شمس النهار تضيء للناس فيبصروا طريقهم , وينصلح معاشهم , فكذلك الهدى والصلاح موصل لرضا الله ورضوانه وجنته , ومبعد عن النار . وكذلك التمثيل للضلال وحب الدنيا , وحظوظ النفس بالظلمات , أو بسواد الليل مناسب أيضاً تمام المناسبة لما بينهما من التوافق والشبه , فكما أن الظلام مانع للإنسان من الرؤية , معيق له عن السير والإدراك للطريق ، قائد له إلى المفاسد والأضرار فكذلك المعاصي وشهوات النفس مردية للإنسان في المهاوي والمهالك , مفسدة لدينه ودنياه .

ونظرة أخرى في تركيب الصورة الدقيق يتضح لنا كيف ألف الشيخ بين أجزاء هذه الصورة مع صفاء العبارة , ودقتها , ووفائها بالمعنى المقصود . فالتعبير عن الخصوصية بشروق شمس النهار في الأفق فيه – فيما يبدو لي – إشارة خفية إلى أن اصطفاء الله (عز وجل) لعبده إنما هو تغيير كلي لحال السالك يشمل كل تصرفاته وحركاته , فإذا أحب أو أبغض , أو أعطى أو منع , كان ذلك كله لله , فحركاته وسكناته لله (عز وجل) , وعليه فقد عم الصلاح وشاع في كل ركن من أركان نفسه , وقد امتلأ باطنه بالروحانية مع كون ظاهره خالص البشرية . فهذه النفحة الربانية التي لابست باطنه , وشاعت في أركانه وجوانحه ليست من نفسه وذاته , بل أوصاف البشرية هي الذاتية الملازمة له . فمثل لذلك بشروق شمس النهار مع إضافة النهار إلى الشمس لما في ذلك من عموم نورها , وانتشار شعاعها في كل أنحاء الأفق (الفضاء) وأجزائه , مع أنها ليست من هذا الأفق . فالتمثيل هنا تمثيل لعموم الهداية وشمولها لنفوس الصالحين . ونظرة أخرى إلى التفاته في هذه الصورة , كيف حول الحديث من التمثيل للخصوصية بشروق شمس النهار إلى الحديث عمن

سألني لأعطينه , ولئن استعاذني لأعيذنه " وراجع شرح الحديث في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب صـ 434، ، ط الريان ، ط أولى ، (1407) ه - (1987) م .

أشرقت على ليله شموس الهدى في قوله : **" ... تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ , وتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدَّكَ إِلَى حُدُودِكَ , فَالنَّهارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ , ولَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ "** .

ومن خلال هذه الصورة الرائعة يتضح كيف مثل الشيخ لأمور معنوية بأمثلة حسية يستوي في معرفتها وفي إدراك وضوحها وظهورها الخاص والعام , وكيف ركب أجزاء الصورة , ورتب بين جزئياتها مع صفاء العبارة ودقتها , وذلك مع التلاحم بين أجزاء الصورة , وبناء أجزائها على بعض فلله دره **!**

الفصل الثالث : الاستعارة في الحكم :

كما كان للشيخ عناية بالصورة التشبيهية والتمثيلية في حكمه كانت له أيضاً عناية بالصورة الاستعارية . وكما هو معلوم أن الاستعارة أبلغ من التشبيه , وكما يقول صاحب الإيضاح : " أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة , وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه , وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل على سبيل التشبيه , وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر "([1]) . وقد قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني : " وليس ذلك [أي كون الواحد من هذه الأمور أبلغ من الآخر] لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه , بل لأنه يفيد تأكيداً لإثبات المعنى لا يفيده خلافه ... "([2]) . والصور الاستعارية في حكم ابن عطاء صور وارفة الظلال , دقيقة التصوير , موجزة العبارة , تدل على الذوق , وقوة الحس الأدبي , وعمق الخيال الفني ، كما تدل على إدراكه لوجوه الشبه بين الأشياء و على مدى قدرته على التعبير عن المعنوي بالمحسوس , وهو ما نراه واضحاً جلياً فى حكمه , وقد مضى أمثلة لذلك عند الحديث عن التشبيه والتمثيل .

أما عن الاستعارة في حكم ابن عطاء فمنها قوله في الحكمة الثانية عشرة : " مَا نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ " . ومراده هنا أن الذي ينفع القلب في وصوله إلى الله (عز وجل) هو اعتزاله للناس , ولا يتم ذلك إلا بمساعدة القالَب , فينعزل قلباً وقالَباً عن الناس . وهنا يصفو فكره , وتسمو روحه . والصورة البيانية هنا في قوله : " **... يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ** " فالميدان بالفتح والكسر هو مجال الخيل ولقد شبه هنا الفكرة التي ترد وتتردد على المتجه إلى الله بتردد الخيل في مجالها .

وهو تصوير دقيق للمعنوي وهو الفكرة بالمحسوس الذي هو ميدان الخيل. وما أروع تعبيره عن الفكرة بـ " **الميدان** " , ففي هذه الصورة الرائعة إشارة إلى تنوع الأفكار , واتساع ميادينها خاصة مع العزلة والإقبال بالكلية على الله (عز وجل) .

فهناك فكرة يسبح فيها المرء في عالم الملكوت وهو يتأمل في جلال الله سبحانه وما أنعم به عليه من نعم لا تحصى , وهناك فكرة في مخلوقات الله (عز وجل) وما فيها من دلائل القدرة والإبداع , وهناك فكرة في تصاريف القدر في الكون وما في ذلك من دلائل اللطف والحكمة والتدبير , وهناك فكرة في

---

(1) الإيضاح 167/3 , والتلخيص صـ 346

(2) دلائل الإعجاز صـ 55 – 57 باختصار , والإيضاح 167/3 , 168

النفس وشهواتها , وهناك أفكار أخرى تتسع مجالاتها , ويمضى فيها المرء ولا يصل إلى غاياتها . فيكون المعتزل بذلك قوله ذكراً , وصمته فكراً , ونظره عِبَرَاً . ومن هنا كان التعبير عن الفكرة بـ " **الميدان** " مناسباً للمعنى أتم مناسبة , وكانت الصورة ملائمة للمقصود أتم ملاءمة , وكما أن الخيل تتردد في الميدان ذهاباً وإياباً فكذلك الأفكار النافعة تتلاحق وتتابع على صاحب العزلة المنفرد بقلبه وقالبه عن الناس , وتتلاحق في قلبه أنوار الهداية والرشاد, وكلما فرَّغ المرء قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأسرار (1) . فالسعة أمر مشترك بين الأفكار والميادين , والتردد والتكرار أمر مشترك بينهما " فلا شئ أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة ؛ لأن العزلة كالحمية , والفكرة كالدواء . فلا ينفع الدواء من غير حمية , ولا فائدة في الحمية من غير دواء , فلا خير في عزلة لا فكرة فيها , ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها ؛ إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب , والمقصود من التفرغ جولان القلب واشتغال الفكرة , والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العمل وتمكنه من القلب .

وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته (2) ، وهو الذي سماه الله " **القلب السليم** " حيث يقول تعالى في شأن يوم القيامة : ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : 88 , 89] أي صحيح (3) ، "وبالعزلة ينكف بصره عن النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها , وينصرف خاطره عن الاستحسان إلى ما ذمه الله تعالى من زخرفها , فتمتنع بذلك النفس عن التطلع إليها , والاستشراف لها , ومنافسة أهلها فيها "(4) .

---

(1) كما قال في الحكمة ست ومائتين : " فرغ قلبك من الأغيار , تملأه بالمعارف والأسرار " ، ولقد تحدث عن بداية هذه الفكرة فقال في الحكمة مائتين وست عشرة : " الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار " ، كما أشار إلى أهمية الفكرة في الحكمة التي تليها فقال " الفكرة سراج القلب , فإذا ذهبت فلا إضاءة له " ، وفي الحكمة الأخيرة يقول " الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان , وفكرة شهود وعيان . فالأولى : لأرباب الاعتبار , والثانية : لأرباب الشهود والاستبصار " .

(1) يراجع في فوائد العزلة ومنافعها الإحياء للغزالي , وشرح ابن عجيبة على الحكم صـ 56 – 59 , والعزلة للخطابي ، وابن أبي الدنيا .

(2) شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 56

(3) شرح النفزي على الحكم 16/1

ومن الصور الاستعارية في الحكم : قوله في الحكمة الثالثة عشرة : " كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَرحَلُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَرجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ ؟ " ([1]).

هذه الحكمة مفعمة بالصور البيانية في أكثر من موضع : في قوله : **" كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ ؟ "** , وفي قوله : **" أَمْ كَيْفَ يَرحَلُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟ "** , وفي قوله : **" أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ ؟ "** فالصورة الأولى في قوله : **" كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ ؟ "** تشير إلى أن القلب الذي يميل إلى الدنيا وشهواتها وملاذها , ويتعلق بالناس , وينحصر في الملاذ الحسية , ويتبع هواه لا تتفتح له أبواب الهدى , ولا تشرق على قلبه أنوار الهداية , ولا يرى إلا شهوات الدنيا وملاذها ؛ وذلك لأن حب الدنيا والميل إليها قد انطبع فيه . وما أروع تعبيره هنا بقوله : **" ... صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِى مِرْآتِهِ ؟ "** إشارة إلى تمكن حب الدنيا وملاذها وشهواتها من القلب بحيث تنطمس البصيرة , وتستحكم الغفلة . فالتعبير بـ **" الطبع "** هنا مما صور هذا المعنى أدق تصوير ؛ فالطبع للشيء يطلق على " تصويره في صورة ما , يقال : طبع الله الخلق : أنشأه : ([2]) . فالطبع يتضمن انطباع الصورة , ويتضمن الختم والانغلاق معاً , وهو هنا مما ناسب الصورة والمعنى أتم المناسبة ؛ ولذلك ذكر قبله **" صُوَرَ الأَكْوَانِ "** مع الإضافة ليشير إلى هذا المعنى , ومما زاد هذه الصورة جمالاً أنه استعار " المرآة " هنا للبصيرة . فالمرآة : آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها , فكلما قوي صقلها قوي ظهور ما يقابلها فيها . واستعيرت هنا للبصيرة التي هي عين القلب التي تتجلى فيها الأشياء حسنها وقبيحها . فالمرآة الصقيلة تظهر الإنسان على ما هو عليه بما فيه من محاسن ومساوئ حسية ، وينطبع فيها ما يظهر ويتجلى أمامها من الأمور الحسية , وكذلك القلب يستقر في عينه ما أشربه من طاعة لله وإقبال عليه , أو حب للدنيا , وإدبار عن الآخرة .

أما عن الصورة الثانية : ففي قوله : **" أَمْ كَيْفَ يَرحَلُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ ؟ "** فالرحيل : هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن , وعبر به هنا للانتقال من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب , أو من وطن

---

(4) شرح النفزي على الحكم 25/1

(1) ينظر المعجم الوسيط 549/2 , 550

الغفلة إلى وطن اليقظة , أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله ... ،وإذا كان الرحيل يتطلب الإطلاق وعدم التكبيل فلا رحيل مع التكبيل , وهو ما عبر به هنا عن تعلق القلب بالشهوات التي تمنعه من النهوض إلى الله (عز وجل) لاشتغاله بالالتفات إليها . وما أروع تصوير هذه الحال بصورة المكبل ! فلما كان المكبل لا يستطيع السير لتقييد حركته كان الغارق في الشهوات قلبه ممنوعاً عن الوصول إلى الله (عز وجل) , فهو محبوس في هوى نفسه مقيد بشهواتها. ثم أضاف إلى هذه الصورة صورة أخرى بقوله : " **أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ ؟** " فالدخول في طريق الله يتطلب الطهارة , أي طهارة القلب , وصاحب الغفلة قلبه متعلق بالدنيا وهواه وشهواته , غارق في غفلاته , وهي الحالة التي شبهها بالجنابة .فلما كانت الجنابة مانعة من دخول الأماكن الطاهرة فكذلك القلب الغافل اللاهي الغارق في ملذات الدنيا لا دخول له في طريق السالكين إلى الحق (عز وجل) . والتعبير عن الغفلة هنا بـ " **الجنابة** " تعبير دقيق , فلم يعبر مثلاً بما هو أقل منها من أنواع الحدث الأخرى ... , وذلك – فيما يبدو لي – لأن الأمر يتصل بـ " **القلب** " **وهو " المُضْغَةُ التِي إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ , وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ** " كما صح في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير . فالجنابة من الحدث الأكبر المانع من دخول الأماكن الطاهرة , أما مع الحدث الأصغر فيجوز له أن يدخل إلى الأماكن الطاهرة , لكن مع الجنابة فلا , وكذلك معاصي الجوارح مع التوبة والاستغفار ضررها أقل في دين المرء من ضرر معاصي القلوب التي تستقر في أصل موطن الإيمان ومنتهاه , وهي أسرع في إفساد دين المرء من غيرها من المعاصي الأخرى . والشيخ هنا قد أتى بهذه الصور الثلاث على الترتيب مبتدئاً بالصورة الأولى ، ثم بالصورتين التاليتين على سبيل التنويع والتلوين ، والتفنن في التصوير !

ويقول في الحكمة مائةٍ وخمسٍ وتسعين : " **عَلِمَ قِلَّةَ نُهُوضِ العِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُوبَ طَاعَتِهِ , فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلاسِلِ الْإِيَجابِ . " عَجِبَ رَبُكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ "**[1] . والشيخ في هذه الحكمة

---

(1) العبارة الأخيرة من الحكمة اقتبسها الشيخ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ : " عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل " وفي رواية " يقادون إلى الجنة بالسلاسل " والحديث رواه البخاري في – كتاب الجهاد – باب الأسارى في السلاسل – وأبو داود – كتاب الجهاد – باب في الأسير يوثق – ح (2677) . وهو في المشكاة ح (3960) 3/8 وقد قال بعض العلماء حول التعجب

يشير إلى أن الحق سبحانه لما علم قلة قيام العباد بالعبودية له أوجب عليهم طاعته , وأوعدهم على تركها بالعقوبة , فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب . وما أروع تعبيره عن التكاليف الواجبة بـ " **السَّلَاسِلِ** " فهي استعارة بديعة شبه فيها التكاليف الواجبة التي ألزم الله العباد بها بالسلاسل . وقد اقتبس هذه الاستعارة من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " **عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ** " , ومن قول أبي خراش الهذلي (1) :

فلَيسَ كَعهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ولَكنْ أَحاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلاسِلُ (2)

فلما كانت السلاسل توضع في الأعناق , وتكون قيداً لصاحبها فتمنعه من أن يتوجه إلى غير الوجهة التي يريدها صاحبها كانت التكاليف الواجبة شبيهة بها في كونها مانعة للعبد من الخروج عن منهج الله , ملزمة له بالسير في طريقه

المنسوب إلى الله في الحديث : " يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله تعالى فيه إظهار عجب هذا الأمر لخلقه لأنه بديع الشأن , وهو أن الجنة التي أخبر الله تعالى بما فيها من النعيم المقيم , والعيش الدائم , والخلود فيها الذي من حكم من سمع بها من ذوي العقول أن يسارع إليها , ويبذل مجهوده في الوصول إليها , ويتحمل المكاره والمشقات بشأنها . وهؤلاء يمتنعون عنها , ويرغبون عنها , ويزهدون فيها حتى يقادوا إليها بالسلاسل كما يقاد إلى المكروه العظيم الذي تنفر منه الطباع , وتألم منه الأبدان , وتكرهه النفوس . فصفات العباد إذا أطلقت على الله أريد بها غياياتها , فغاية التعجب والاستبشار بالشيء : الرضى به , واستعظام شأنه . والمعنى : عظم الله شأن قوم يؤخذون عنوة في السلاسل فيدخلون في الإسلام (كما فعل بأسارى الكفار حين يراد بهم الدخول في الإسلام) فيصيرون من أهل الجنة , ورضي عنهم , وأحلهم محل ما يتعجب منهم وقيل : أراد بـ " السلاسل " ما يرادون به من قتل الأنفس , وسبي الأزواج والأولاد , وتخريب الديار , وسائر ما يلجئهم إلى الدخول في الإسلام الذي هو سبب دخول الجنة . فأقام المسبب مقام السبب . ويحتمل أن يكون المراد بها جذبات الحق التي يجذب بها خالصة عباد الله من الضلالة إلى الهدى , ومن الهبوط في مهاوي الطبيعة إلى العروج بالدرجات إلى جنة المأوى . ينظر شرح الطيبي على المشكاة 3/8 . هذا ولقد أشار ابن عطاء إلى هذه الحكمة وفصلها في كتابه التنوير في إسقاط التدبير صـ 273 , 274، ط دار جوامع الكلم ، (1999) م .

(1) هو خويلد بن مرة أحد بني قرد بن عمرو بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل ، ومات في زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وقد نهشته حية ، وهو صحابي .

(2) البيت في ديوان الهذليين من قصيدة له في قتل زهير بن العجوة أخي بني عمرو بن الحارث ، ومطلع القصيدة

فَجَّعَ أضيافي جميلُ بنُ مَعْمَرٍ بذي فَجَرٍ تأوي إليه الأرامِلُ

والشاعر يقصد بالبيت موضع الاستشهاد : أن الإسلام أحاط برقابنا فلا نستطيع أن نعمل شيئاً . ديوان الهذليين ، القسم الثاني صـ148 – 150 ، ط مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ثانية (1995) م .

سبحانه .كما عبر عنها بصيغة الجمع " سلاسل " إشارة إلى تعدد هذه التكاليف الواجبة واختلافها في الأخلاق , والعبادات , وغيرهما !

وقد أضاف الإيجاب إلى السلاسل ليبين أن هذه السلاسل إنما تتعلق بالتكاليف الواجبة , وأنها رحمة ونعمة من اللطيف الرحيم ؛ حيث إنه ساقهم بهذه التكاليف إلى طاعته ليحصل لهم ما أعد لهم من النعيم في جنته , وهو ما بينه في الحكمة التى تليها حيث يقول : " **أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ , وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ** " فالسلاسل توضع في عنق الأسير يجبره بها قهراً عنه من أسره إلى الموضع الذي يريده , وكذلك الإيجاب يسوقهم الله تعالى به إلى الطاعة التي يحصل لهم به ما يسرهم في المستقبل – وإن كانت شاقة عليهم في الحال – فهو يفعل بهم كما يفعل الولي بالصبي . ألا تراه كيف يؤدبه , ويضربه على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته , ويلزمه أموراً شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك لأجل تحصيل منافعه في المستقبل الذي هو جاهل بها الآن فإذا كبر وعقل عرف ذلك عياناً "([1]) .

ولما كانت هذه الاستعارة البديعة تحتاج إلى بيان اقتبس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وضح به مقصوده غاية التوضيح , وأتم به المراد أتم البيان , ولقد جاء هذا الاقتباس مناسباً للمقصود غاية المناسبة , فهذه التكاليف خيرها عائد إلى أصحابها , والله (عز وجل) غني عن خلقه , لا تنفعه طاعتهم , ولا تضره معصيتهم , وإنما أوجبها عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم لا غير .

(3) ينظر شرح الشرقاوى على الحكم 32/2

الفصل الرابع : الكناية في الحكم :

كما كان للشيخ عناية بالتشبيه , والاستعارة في حكمه , كانت له أيضاً عناية أيضاً بالصورة الكنائية – وإن لم ترقَ إلى درجة العناية بالصورة التشبيهية , والصورة الاستعارية – مع أن الصورة الكنائية لها من المحاسن والميزات ما هي جديرة به , فهي ضرب من المجاز([1]) لها من الأثر ما للتشبيه والاستعارة ؛ حيث تبرز المعاني المعقولة في صورة المحسات , وبذلك تكشف عن معانيها وتوضحها , وتبينها , وتحدث انفعال الإعجاب . وهي وسيلة من وسائل تحقيق القصد في النيل من الخصم ... , ومن خلالها يستطاع التعبير عن المعاني المستهجنة بألفاظ لا تعافها الأذواق , ولا تمجها الآذان , وأمثلة هذا في القرآن الكريم كثيرة ... ([2]) . وفيما يبدو لي أن الشيخ لم يُعنَ بالصورة الكنائية عنايته بالصورتين : التشبيهية , والاستعارية وذلك نظراً لطبيعة المقام , ومقدار وفاء الصورة البيانية بالمقصود , فإذا كان علم البيان : إيراد المعنى بطرق مختلفة لوضوح الدلالة عليه فقد تكون الاستعارة في مقام هي الأولى والأوفى بالمعنى , وقد يكون التشبيه في موضع آخر هو الأنسب للمقام , وقد تكون الكناية في موضع آخر هى الملائمة للمقصود والغرض . وهذا أمر يرجع إلى ذوق الأديب , وإدراكه لخصوصية الصورة في كل موضع , ومعرفته بالمقام الذي يعبر عنه بالصور المختلفة .

ومن الحكم المشتملة على الكناية ما ذكره الشيخ في الحكمة السادسة والخمسين حيث يقول : **" النُّورُ جُنْدُ القَلْبِ , كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ , فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الأَنْوَارِ , وَقَطَعَ عَنْهُ مُدَدَ الظُّلَمِ والأَغْيَارِ "** ([3]).

أراد الشيخ أن يقول : إن نور التوحيد واليقين , وظلمة الشرك والشك جندان للقلب والنفس , والحرب بينهما سجال , فإذا أراد الله نصر عبده أمد قلبه بجنوده , وقطع عن نفسه مدد جنودها , وإذا أراد خذلانه فعلى العكس .

---

(1) اختلف البلاغيون حول مجازية الكناية : فمنهم من ذهب إلى أنها ليست من المجاز كفخر الدين الرازي , والسكاكي , والخطيب القزويني , وغيرهم . ويرى ابن الأثير , والعلوي , وغيرهما أن الكناية نوع من أنواع المجاز . والقول بمجازية الكناية هو ما انتهى إليه معظم الدارسين العصريين . ينظر علم البيان للدكتور/ محمد فتحي أبي العطا صـ 205 – 209 ، ط دار النشر الدولي ، بدون تاريخ .

(2) ينظر المثل السائر 2/ 184 , 185 ، و علم البيان ص 266 – 268 للدكتور / بدوي طبانة , ط مكتبة الأنجلو ، ط رابعة (1397)هـ (1977)م.

(1) شرح الحكم لا بن عجيبة صـ 148

والصورة هنا صورة رائعة مصورة للحرب المستمرة بين القلب المتوجه إلى الله (عز وجل) , وبين النفس ([1]) المتجهة للهوى , والدنيا ,وصحبة الشيطان . وقد أشار ابن عجيبة إلى الكناية في هذه الحكمة فقال : " النفس والعقل والقلب والروح أسماء لمسمى واحد ، وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني ، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف باختلاف أحوالها وتنقل أطوارها ، ومثال ذلك كماء المطر النازل في أصل الشجرة ، ثم يصعد في فروعها فيظهر ورقاً ثم نوراً وأزهاراً ... فالماء واحد واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره ، فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التي هي محل النفس إلى وطن النور الذي هو محل القلب وما بعده .فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها ، وهي تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها . فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى موطنه في عالم الملكوت , وكأن هذه الواردات جنود له من حيث إنه يتقوى بها , وينتصر على ظلمة النفس . وهذه الأنوار هي الواردات المتقدمة , والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صارت كأنها جنود لها , وهي ظلمة من حيث إنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان " ([2]).

وهذا التقابل الكنائي في الصورة مفعم بالحركة , وفيه تجسيد للصراع بين النفس المؤمنة وهواها, بين جذبات الحق وهتافات الباطل , وإن شئت قلت : بين دعوات الإيمان , وشبهات الضلال من الهوى , والنفس , والشيطان .

وهذه الصورة الكنائية قد ساعدها على إكمال معالم هذه اللوحة التصويرية استخدامه للتشبيه في قوله : " **... فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الأَنْوَارِ...** " ومقصده بـ " جنود هي الأنوار , أو بالأنوار المشبهة بالجنود , فإنها إذا حصلت له أدرك بها قبح الشهوات " .

وهذه اللوحة التصويرية جسدت الصراع النفسى في قلب المؤمن بين الهدى والضلال , وأن الموفق من هداه الله , وسلحه بأنوار الهدى والرشاد ﴿ **... وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [التغابن : 11] ، وأن المخذول

---

(1) النفس , والعقل , والقلب , والروح , والسر أسماء لمسمى واحد , وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة في هذا القالب الجسماني الظلماني ... , وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها , وتنقل أطوارها . ومثال ذلك : كماء المطر النازل في أصل الشجر , ثم يصعد في فروعها فيظهر ورقاً , ثم نوراً وأزهاراً , ثم يعقد ثمرة , ثم ينمو حتى يكمل , فالماء واحد واختلفت أسماؤه باختلاف في أطواره . ينظر شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 128

(2) شرح الحكم لا بن عجيبة صـ 149

من خذله الله فتسلح بجند الهوى , والنفس ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [البقرة : 10] ﴿ **...لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف : 179] ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف : 28] ﴿**... فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ [الزمر : 22] .

ومن صور الكناية في الحكم : قوله في الحكمة مائتين وثلاث عشرة : **" وُصُولُكَ إِلَى اللهِ وُصُولُكَ إِلَى العِلْمِ بِهِ , وإِلَّا فَجِلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتِّصِلَ بِهِ شَيْءٌ أَو يَتِّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ ".**

ويقصد الشيخ بالوصول إلى الله هنا : الوصول إلى العلم الحقيقي بالله عز وجل , وتحقيق العلم بوجوده وحده , وهو العلم الذي ينبسط في الصدر شعاعه , وهو غاية السالكين , ومنتهى سير السائرين . وهذا الوصول لا يتحقق إلا بقمع الشهوات في النفس , والبعد عن هواها , والعيش فى مرضاة الله وفق مراد الله . ولأجل ألا يفهم من الوصول الوصول الحسي الذي يكون بين الذوات قال في آخر كلامه : **" ... وإِلَّا فَجِلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتِّصِلَ بِهِ شَيْءٌ أَو يَتِّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ "** فحاشاه سبحانه عن ذلك للزوم تحيزه , أو اتصاله بشيءٍ لافتقاره وحصره , تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً , وفي ذلك يقول الجنيد : " متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير , هيهات ... هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك , ولا وهم , ولا إحاطة إلا إشارة اليقين , وتحقيق الإيمان "([1]) .

والكناية هنا في عبارة " الوصول إلى الله " حيث إنها كناية عن مجاهدة النفس ومحاربتها ، وقطع العوائق والعلائق عنها ، أو الوقوف مع شيء منها. " وأهل هذا الفن قد ذكروا في هذا المقام اصطلاحات , وألفاظ تداولوها بينهم تقريباً لفهم المعاني , فمنها : السير ,والرحيل , وذكر المنازل , والمناهل , والمقامات , ومنها : الرجوع , والوقوف , وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها , وقطع العوائق والعلائق عنها , أو الوقوف مع شئ منها , ومن ذلك

(1) شرح النفزي على الحكم 40/2

: الوصول , والتمكين , والسكون , والطمأنينة , وغير ذلك ... , وكل ذلك كناية عما أدركته أرواحهم , وذاقته أسرارهم من عظمة الحق وجلاله "([1]) .

وقد مضى شيء من ذلك عند الحديث عن الاستعارة في الحكمة الثانية عشرة حيث يقول : **" مَا نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانَ فِكْرَةٍ "** , وقوله في الحكمة أربع وأربعين ومائتين : **" لَولَا مَيادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ , إِذْ لَا مَسافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّىَ تَطْوِيهَا رِحْلَتُكَ , وَلَا قَطِيعَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ تَمْحُوهَا وَصْلَتُكَ "** .

وكناية المؤلف عن تحقيق العلم بالله وحده علماً يقيناً بـ **" الوصول إليه "** مما يناسب المعنى تمام المناسبة , فهو لم يعبر بعبارات القوم الأخرى كالرجوع , أو السير , أو الرحيل , أو غير ذلك ؛ لأنه أراد التعبير عن حالة من الكمال في العلم لا يناسبها السير أو الرحيل أو المقام إلخ . فالوصول في الحس : تعبير عن إدراك الغاية عند الواصل . فتحققت بهذه الكناية المناسبة بين المعنى العقلي المعنوي المقصود وهو العلم , وبين اللفظ المناسب للمعنى تمام المناسبة .

وبهذه الملاحظات على بعض الصور البيانية في الحكم العطائية أكون قد وصلت إلى نهاية هذا البحث , والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم , وأن يجنبنا الزلل , وأن يعلمنا ما ينفعنا , وأن ينفعنا بما علمنا , فهو حسبنا ونعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(2) شرح ابن عجيبة على الحكم صـ 361 , 362

الخاتمة وأهم النتائج

اتضح لنا من خلال ما سبق ما يلي :

أولاً : أن الصور البيانية في الحكم العطائية صور دقيقة تتوافق فيها كل الجزئيات , وتتلاحم لخدمة الغرض العام من السياق .

ثانياً : أن ابن عطاء كان يميل في كثير من الحكم المشتملة على التصوير إلى تركيب الصورة كما لاحظنا في الحكم المشتملة على التشبيه التمثيلي , والاستعارة ؛ وذلك نظراً لأن التركيب في الصورة أبلغ وأدق وأدل على المعنى المقصود , كما أن التركيب في الصورة مما يتناسب مع المقام الذي يريد الحديث عنه مما يتعلق بسير السائرين إلى الله , وحال السالكين إليه .

ثالثاً : أن الصور البيانية في الحكم جاءت لإبراز المعنوي في ثوب محسوس , والعقلي في صورة مشاهدة , وقد وافق فيها الشيخ بين المعاني التي يقصدها القوم وبين ما يناسب أفهام الناس في أحسن صورة من اللفظ , ومن أمثلة ذلك ما سبق في الحكمة مائةٍ وأربعٍ وخمسين , والحكمة مائتين وأربع وخمسين .

رابعاً : أن الصور البيانية في حكمه جاءت كلها من صميم البيئة والواقع , ربط فيها التصوير بمشاهد من الحياة مما جعلها قريبة من الأفهام ,ومن ذلك ما سبق في الحكمة مائة وسبعٍ وثمانين .

خامساً : مناسبة الألفاظ لمعانيها في الصورة البيانية , مع فصاحتها , ووضوحها , وتعبيرها أدق تعبير عن المقصود , وهذه ميزة من ميزات التصوير الناجح , ومن ذلك : ما سبق في الحكمة الثانية عشرة , والحكمة الثالثة عشرة .

سادساً : تأثر الشيخ بالتصوير في القرآن الكريم في بعض المواضع كما في الحكمة الثانية والأربعين , والحكمة مائتين وأربعٍ وخمسين , وذلك في بحث الشبيه في الحكم , وقد سبق بيان أثر الصورة القرآنية في حكم ابن عطاء .

سابعاً : التأثر بالتصوير في الحديث النبوي الشريف في أكثر من موضع كما في الحكمة الثانية والأربعين , والحكمة مائةٍ وخمسٍ وتسعين .

ثامناً : اتجاه الشيخ إلى استخدام الصورة البيانية من تشبيه , واستعارة , وكناية في الحديث عن مقامات السائرين والواصلين إلى الله ؛ وذلك نظراً لأن الصورة البيانية خير ما يعبر عن هذه الأمور المعنوية والقلبية التي لا يدركها كثير من الناس , ومن ذلك ما ذكره في الحكمة الثانية والأربعين , والحكمة مائتين واثنتين وأربعين .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ت (911) هـ ، ط دار الفكر ، بيروت ، (1399) هـ (1979) م .

2- الاستعارة نشأتها وتطورها للأستاذ الدكتور / محمود السيد شيخون ، ط كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، بدون تاريخ .

3- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ت (471) هـ - تحقيق الشيخ / محمد رشيد رضا ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى ، (1409) هـ (1988) م ، وطبعة دار المدني بجدة ، (1412) هـ (1919) م ، تحقيق الأستاذ / محمود شاكر .

4- الأسلوب الكنائي ، نشأته ، تطوره ، وبلاغته ، للأستاذ الدكتور / محمود شيخون ، ط كلية الدر اسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، بدون تاريخ .

5- الأعلام لخير الدين الزركلي ت (1390) هـ ، دار العلم للملايين ، (1990) م.

6- الإيضاح لتلخيص المفتاح للخطيب القزوينى ت (739) هـ - تحقيق الأستاذ / عبد المتعال الصعيدى – ط مكتبة الآداب – (1417) هـ (1997) م .

7- إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي ، ط دار الكتب العلمية- بيروت- (1413) هـ .

8- بحوث في البيان للأستاذ الدكتور/ محمود السيد شيخون، ط كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، بدون تاريخ .

9- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ، ط دار الكتاب الإسلامي ، بدون تاريخ .

10- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ت (794) هـ ، تحقيق الأستاذ / محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط المكتبة العصرية ، بيروت ، بدون تاريخ .

11- بغية الإيضاح للأستاذ / عبد المتعال الصعيدي ، ط مكتبة الآداب ، (1417) هـ (1997) .

12- البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم للأستاذ الدكتور / عبد الفتاح لاشين ، ط دار الفكر العربي ، (1420) هـ (2000) م .
13- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس للشيخ تاج الدين بن عطاء السكندري ت (709) هـ ، ط مصطفى البابي الحلبي ، ط ثانية ، (1375) هـ – (1956) م .
14- التصوير البياني ، دراسة تحليلية لمسائل البيان ، للأستاذ الدكتور/ محمد أبي موسى، ط مكتبة وهبة ، ط رابعة (1418) هـ (1997) م .
15- تفسير ابن عاشور المسمى التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور ت(1394)هـ ، ط دار سحنون ، تونس (1997) م .
16- تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ت (406) هـ ، تحقيق الأستاذ / محمد عبد الغني حسن ، ط دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، بدون تاريخ .
17- التلخيص في علوم البلاغة للخطيب القزويني ت (739)هـ ، تحقيق الأستاذ/ عبد الرحمن البرقوقي ، ط دار الفكر ، ط أولى ، (1904) م .
18- التنوير في إسقاط التدبير لابن عطاء السكندري ، ط دار جوامع الكلم ، (1999)م .
19- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ت (795) هـ ، ط الريان ، ط أولى ، (1407) هـ (1987) م .
20- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير ، ط المجمع العلمي العراقي (1375) هـ (1956) م .
21- جامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني ، ط مركز بركات رضا بالهند ، (2001) م .
22- الجمان في تشبيهات القرآن لأبي القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي ت (485) هـ تحقيق الدكتور / محمد رضوان الداية ، ط دار الفكر ، بيروت ، ط أولى ، (1423) هـ ، (2002) م .
23- جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة لنجم الدين أحمد بن الأثير الحلبي ، ط مكتبة المعارف بالإسكندرية ، بدون تاريخ .

24- حاشية الدسوقي على مختصر سعد الدين التفتازاني للعلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي ت (1230) هـ ، ط دار السرور ، بيروت ، بدون تاريخ .
25- الحكم لابن عطاء الله السكندري أقوى دستور تربوي صاغه في القرن السابع الهجري للأستاذ/ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ، ط منتدى دار الإيمان ، بدون تاريخ .
26- خزانة الأدب وغاية الأرب للشيخ / تقي الدين أبي بكر على المعروف بابن حجة الحموي ت (837) هـ ، تحقيق الأستاذ / عصام شعيتو ، ط دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط ثانية ، (1991) م .
27- دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير للأستاذ / عبد الهادي العدل ، ط دار الطباعة المحمدية ، ط ثالثة ، (1378) هـ (1958) م .
28- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لأحمد بن حجر العسقلاني ، ط دار الجيل ، بدون تاريخ .
29- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ت(471)هـ ، تحقيق العلامة/ محمد رشيد رضا ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى ، (1409) هـ وطبعة دار المدني بجدة ، تحقيق الأستاذ / محمود شاكر .
30- الديباج المذهب في أعيان المذهب لابن فرحون ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1417) هـ
31- ديوان الهذليين ، ط مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ثانية (1995) م .
32- ذيول العبر للذهبي ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى ، (1405) هـ (1985) م .
33- سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله يوسف بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ت (466) هـ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، (1402) هـ (1982) م .
34- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ت (1089) هـ ، ط دار الكتب العلمية، بدون تاريخ .
35- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح والمسمى الكاشف عن حقائق السنن للإمام الحسين بن عبد الله الطيبي ت (743) هـ ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى ، (1422) هـ (2001) م .

36- شرح الحكم للشيخ محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد النفَّزي الرندي والمسمى غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية، ط مصطفى البابي الحلبي ، ط الأخيرة (1358) هـ - (1939) م .
37- شرح الحكم للعلامة أحمد بن عجيبة الحسني الإدريسي ت (1224) هـ والمسمى إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ط المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ.
38- شرح الحكم لشيخ الجامع الأزهر العلامة عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي ت (1204) هـ والمسمى المنح القدوسية على الحكم العطائية ، مطبوع بهامش شرح ابن عباد .
39- شرح الحكم للشيخ محمد خليل الخطيب والمسمى كشف الغطاء شرح وترتيب حكم ابن عطاء ، ط مطبعة الشعراوي بطنطا ، بدون تاريخ .
40- الصورة البيانية ، للدكتور / محمد خيمر ، ط مصر للخدمات العلمية ، ط أولى ، (1417) هـ .
41- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ت (1317) هـ ، ط دار السرور .
42- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ، ط دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي ، ط أولى ، (1383) هـ (1963) م .
43- طبقات الشعراني لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ط دار الطباعة العامرة الشرقية ،(1299) هـ .
44- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز لعلي العلوي،ط المقتطف ، بدون تاريخ .
45- علم البيان للأستاذ الدكتور/ بدوي طبانة، ط مكتبة الآنجلو، ط رابعة (1397)هـ (1977)م .
46- علم البيان للأستاذ الدكتور/ عبد العزيز عتيق، ط دار النهضة العربية، (1405)هـ.
47- علم البيان للأستاذ الدكتور / فتحي أبي العطا ، ط دار النشر الدولي ، بدون تاريخ .
48- غربال الزمان في وفيات الأعيان ليحيى الحرضي اليماني ، ط مطبعة زيد بن ثابت بدمشق (1405) هـ (1985) م .
49- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندري ، ط منتدى دار الإيمان .

50- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم الزمخشري ت (538) هـ - تحقيق الأستاذ / عبد الرزاق المهدي ، ط دار إحياء التراث العربي ، ط أولى ، (1417) هـ (1997) م .
51- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة ت (1067) هـ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، (1413) هـ (1992) م .
52- الكليات لأبي البقاء الكفوي ت (1094) هـ ، ط مؤسسة الرسالة ، ط أولى ، (1412) هـ (1992) م .
53- لسان العرب للإمام جمال الدين محمد بن منظور ت (711) هـ ، ط دار صادر ، بيروت ، ط ثالثة ، (1414) هـ (1994) م .
54- الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن بن سهل العسكري ، تحقيق الأساتذين / علي البجاوي ، ومحمد أبي الفضل ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ط أولى (1371) هـ (1952) م .
55- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس والشيخ أبي الحسن لابن عطاء السكندري ، تحقيق الأستاذ الدكتور / عبد الحليم محمود ، ط دار المعارف ، ط ثانية ، (1999) م .
56- مباحث في علوم القرآن للشيخ/ مناع القطان ، ط مكتبة المعارف ، الرياض ، ط أولى ، (1413) هـ (1992) م .
57- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين محمد بن الأثير ت (637) هـ، ط المكتبة العصرية ، (1416) هـ (1995) م.
58- المختصر لسعد الدين التفتازاني ت (791) هـ ، ضمن شروح التلخيص ، ط دار السرور .
59- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لعبد الله اليافعي ، ط دار الكتب العلمية ، ط أولى (1417) هـ (1997) م .
60- مشكاة المصابيح للإمام / محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ت (740) هـ ، تحقيق الأستاذ / محمد سمك ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، (1422) هـ (2001) م .
61- المطول شرح تلخيص المفتاح للعلامة سعد الدين التفتازاني الهروى ت (791) هـ ، ط المكتبة الأزهرية ، (1330) هـ .

62- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط الثانية ، ط دار الشروق الدولية ، ط رابعة ، (1426) هـ (205) م .
63- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي ت (626) هـ ، ط الحلبي ، ط أولى .
64- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح لابن عطاء السكندري ، ط الحلبي ، ط أولى ، (1381) هـ .
65- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لأبي يعقوب المغربي ت (1110) هـ ، ط دار السرور ،
66- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ت (874) ،ط دار الكتب العلمية ،ط أولى (1413) ه(1992) م .
67- النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت (386) هـ ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق الأستاذ / محمد خلف الله ، والدكتور / زغلول سلام ، ط دار المعارف ، ط ثانية ، (1387) هـ (1968) م .
68- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي ، ط دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .